الفصل الثالث:

بصائر قرآنية في الوعي والفقه السنني
(في الأسس المعرفية لفقه السنن)

تمهيد:

إن المتدبر للقرآن الكريم، وهو يقدم للعالم رؤيته للإنسان والحياة والعمران، سيكتشف تلك النقلة المنهجية والمعرفية التي أحدثها القرآن بجعله مسألة السنن قضية مركزية في إنجاح عملية الاستخلاف والتسخير، وسيدرك مدى التثوير الذي أنجزه القرآن في التاريخ العالمي للحضارات بتقديمه ولأول مرة في التاريخ الإنساني منظومة متكاملة من سنن التسخير والاستخلاف مصحوبة بخلاصة تجارب الأنبياء وخبرات الحضارات ووقائع التاريخ. ولذلك عدّ محمد عبده الإرشاد الإلهي للسنن هو "إرشاد إلهي لم يعهد في كتاب سماوي، ولعله أرجئ إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي، فلم يرد إلا في القرآن الذي ختم الله به الأديان"[1] وهذا يدل على أن المجتمعات البشرية لا يمكنها أن تستفيد من القرآن في الاستهداء ببصائره وهداياته السننية ما لم تكن في مستوى هذا الاستهداء من حيث حصول تمام الاستعداد الاجتماعي والبصيرة العقلية القادرة على النفاذ إلى عمق النص القرآني لاستنطاق آياته الدالة على ذلك "وغيرها من الآيات التي تحث على السير في الأرض وملاحظة سنن الله في العمران البشري وقوانينه في الثواب والعقاب والإنجاء والاستخلاف والإهلاك، وملاحظة الظواهر الاجتماعية وقوانينها: ظاهرة تكذيب الرسل، والصد عن منهج الله، المجاهرة بالمعاصي، الإجرام، الطغيان، الاستكبار، التطفيف، الزنى، الفساد، الصلاح والإصلاح، النفاق، العمل، الأخذ بالأسباب، التدرج والإمهال، وراثة الأرض، التعمير..."[2]

---

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق،ج٤، ص١٣٩.

(٢) الوزاني، الطيب. "جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم من خلال مفهوم السنن الإلهية في التاريخ والاجتماع البشريين"، فاس: المؤتمر الأول للقرآن الكريم، مؤسسة البحوث والدراسات العلمية، =

ودعوة القرآن إلى السير في الأرض هي دعوة لرؤية تلك السنن التي أرشد إليها القرآن، والوقوف على فاعليتها ونفاذها واطرادها، وهي دعوة أيضاً لاكتشاف سنن أخرى والإحاطة بها واستثمارها في عملية التسخير والاستخلاف والعمران.ولذلك فهم السيد رشيد رضا من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، أن "العلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها. والقرآن يحيل إليه في مواضع كثيرة. وقد دلنا على مأخذه على أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها."(١)

والقرآن؛ إذ يقدم هذه الدعوة تثويراً للعقل البشري، فإنه يقدم معها منهج الاستمداد السنني من الوحي وحركة التاريخ وتجارب الأمم والحضارات بما يفيد تحقق الفعالية التسخيرية والاستخلافية في اتجاه خط العبودية لله، والقيام بمقتضيات الخيرية والوسطية والشهادة. وهذا ما يحفز العقل المسلم اليوم لصياغة منظور عمراني سنني وفق الرؤية القرآنية يؤهله لاستعادة ريادته الحضارية، واستكمال مسيرة السلف من الرعيل الأول الذي أدرك حقيقة السنن، ذلك أن "علماء الصحابة والتابعين، وأئمة الأمصار الذين ورثوا الكتاب بالسليقة كانوا يفهمون هذه السنن الإلهية في الخلق ويهتدون بها وإن لم يضعوا لها قواعد علمية وفنية لتفقيه من بعدهم فيها، ثم زالت السليقة فصاروا يفسرون القرآن والدين بالقواعد والفنون والمعارف الموروثة من الشعوب التي أسلمت، ولم يكن علم الاجتماع قد دونه أحد. لذا لا نرى في تفاسيرهم شيئاً من هذه السنن الخاصة بسياسة الأمم بل تنكبوا هداية القرآن فيها فكانت عاقبة أمرهم ما شكوا منه ونحاول تلافيه."(٢)

وقد عقدنا هذا الفصل للحديث عن الأسس المعرفية لفقه السنن من خلال الرؤية التوحيدية القرآنية التي سنعرض فيها لبصائر الوحي في الفقه العمراني،

= ٢٠١١م، ص ٨٥٣-٨٥٤.

(١) عبده، **الأعمال الكاملة**، مرجع سابق ج٥، ص٩٥.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١٢، ص٢٤٨.

ودلالات ختم النبوة وعالميتها وعلاقتها بالرؤية المستقبلية السننية الإسلامية والمنظومات السننية الحاكمة لحركتي التسخير والاستخلاف البشري.

أولاً: آيات الوحي والدعوة إلى الإبصار والاعتبار

يرشد القرآن الكريم العقل البشري إلى الإبصار والاعتبار الذي يتحقق بعبور هذا العقل من دائرة الزمن الحاضر إلى عوالم الماضي وآفاق المستقبل، وعبوره من الواقعة التاريخية والفعل الاجتماعي إلى استخلاص السنن الحاكمة لهذه الواقعة التاريخية، والاستبصار بمعرفة هذه السنن لتحقيق مراد الله من استخلافه للإنسان واستعماره في الأرض. وقد "أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والفكر والسير في الأرض لتفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالاً."[1]

وقد غالى كثير من المعاصرين في اتهام الأئمة من السلف بالتقصير في فهم مدلول كلمتي الفقه والاعتبار كما وردتا في القرآن الكريم، وأنهم قصروا فهمهم لكلمة الفقه على المدلول الاصطلاحي (الفقه التشريعي)، مما أدى حسب زعمهم إلى اختزال آيات القرآن على آيات الأحكام دون سواها من سائر القرآن، واستنتجوا بذلك غياب الفقه الاجتماعي لدى هؤلاء الأئمة، وكأنهم أرادوا تأكيد سبقهم واستدراكهم على من مضى من السلف بفهم جديد لمعنى الفقه والاعتبار استصحاباً -بزعمهم- للسياق العام للآية الواردة في سورة الحشر ﴿... فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢]. ولسنا ندعي العصمة لأحد من الأئمة والمجتهدين، ولا ننكر أن كتب الفقه قد ضخم فيها الجانب التشريعي على حساب الفقه الاجتماعي؛ "إذ لم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٣.

والحديث من سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما تحفظ به دينها ودنياها، وهو ما لا يغني عنه التوسع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة والسلم والإجارة..."[1] وهذا يعني أنه في الوقت الذي ألفت فيه العديد من المجلدات الفقهية التي تعالج مسائل الطهارة وأحكام الصلاة والصوم والحج "فإن كمية الفقه المتعلق بالمظهر الاجتماعي للعبادةلم يتعد فقه الأسواق والعلاقات الاقتصادية الشعبية كقضايا المزارعة والرهن والسلم.

أما الفقه الذي يعالج مسائل الأمة وقضاياها الكبيرة الرئيسة كالشورى، وعلاقات الحاكم بالمحكوم، ونظم السياسة والإدارة، وقضايا العدل والحرية، والمسؤولية السياسية والاجتماعية، وقوانين الاجتماع البشري، والعلاقات الدولية وعلاقات القانون والقوة، فهذه وأمثالها فتكاد تكون غير موجودة. والكتب المعدودة التي تناولت أطراف هذه الموضوعات -كالأحكام السلطانية- للماوردي صيغت بأساليب توفيقية ركزت على تبرير الأوضاع[2] القائمة آنذاك"[3] ولئن حصل هذا الفصل والانشقاق بين الفقه التشريعي والفقه الحضاري، وأثر على مستوى استنباط الهداية القرآنية في مجال السنن وأنتج نمطاً من التفكير نحا منحى تعميق الهوة بين آيات الكتاب وآيات الأنفس والآفاق، فإن هذا النمط لم يجد سبيله إلى التحول إلى نمط عام

---

(١) مرجع سابق، ج٧، ص٤٩٩.

(٢) لئن كان هذا القول لم يجنح في بدايته إلى التعميم، لكنه مع ذلك أصدر حكماً لا يسنده التاريخ؛ إذ ليس كل ما كتب في السياسة الشرعية داخل ضمن دائرة تبرير الأوضاع، وحتى الفقهاء الذين سلكوا هذا المسلك كانت لديهم مسوغات ومرجحات استندوا إليها ارتبطت بتصورهم للسلطة السياسية، والتوازنات والتدافعات الجارية على الساحة بين مختلف الطوائف والفرق، مهما كانت درجة صحة هذه المسوغات أوخطئها.

(٣) الكيلاني، ماجد عرسان. **فلسفة التربية الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الريان، (١٤١٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص١١٨.

إلا بعد القرن الثامن الهجري رغم النقلة المعرفية والمنهجية التي أحدثها كل من ابن تيمية والشاطبي وابن خلدون، وإن كانت بوادر هذا النمط من التفكير برزت منذ انقضاء القرن الثالث الهجري. لكن القول بحدوث ذلك الانشقاق بين الفقهين لا ينبغي التسليم به على إطلاقه؛ إذ لا ينبغي أن يحجب هذا الحكم إسهامات العديد من الفقهاء والأصوليين والمفسرين والمؤرخين والاجتماعيين الذين جددوا فهم نصوص الوحي وفق رؤية مقاصدية كلية تتكامل فيها علوم الوحي وعلوم الإنسان والاجتماع والطبيعة، وإن لم تكن بعض هذه العلوم قائمة بذاتها منفصلة عن غيرها. قال الباجي (توفي ٤٧٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "... فكأنه قال في هذه الآية: اعلموا أنكم إذا صرتم إلى الخلاف والشقاق، صارت حالكم حال بني النضير، واستحققتم من العذاب مثل الذي استحقوه، إلا أن اللفظ ورد عاماً في الاعتبار، فوجب حمله على عمومه في الأمر بكل اعتبار إلا ما خصه الدليل، وإن كان السبب الذي ورد فيه من الإخبار عن بني النضير خاصاً،"[(١)] وقال العز بن عبد السلام (توفي ٦٦٠هـ): "من العجيب استدلالهم بهذه الآية على جواز القياس مع أن الاعتبار في الآية يراد به الاتعاظ والازدجار."[(٢)]

وقد أورد عبد الكريم عكيوي (ولد: ١٩٦٦)م ستة عشر تعريفاً لمفهوم الاعتبار[(٣)] لعلماء الأمة أمثال الغزالي والرازي وابن تيمية وابن قدامة (توفي: ٦٢٠هـ) والسيوطي وغيرهم، وذلك بحسب المرجعية العلمية والسياق التاريخي الذي حكم

---

(١) الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف. **إحكام الفصول في أحكام الأصول**، تحقيق: عبد الله الجبوري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م). ص٤٧٨.

(٢) الزركشي، **البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٧، ص٢٩.

(٣) عكيوي، عبد الكريم. **نظرية الاعتبار في العلوم الإسلامية**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، من ص٢٨ إلى ص٣٥.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاعتبار ليس مجرد مفهوم فقط، بل هو نظرية إسلامية راسخة لدى علماء الإسلام، ونسق علمي ومنهجي له قواعده وأصوله ومصطلحاته وتطبيقاته، وهو ما حرص عكيوي على بيانه واستخلاصه من بين مصادر العلم الإسلامي وإنتاجاته. وإن لم يفصح علماء الأمة عن هذه النظرية فإنها كانت سارية في أبحاثهم واجتهاداتهم.

تلك التعاريف، ويفيد كثير منها اتساع مفهوم الاعتبار وتعدد دلالاته وعدم اقتصارها على معنى القياس، "وعلى هذا فالقياس، إنما هوجزء من الاعتبار ونوع منه؛ لأن الاعتبار أعم من القياس وأوسع"[1] ولئن أشاد عبد الكريم عكيوي بتعريف ابن عاشور للاعتبار الذي جاء فيه: "الاعتبار: النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها"[2] فإنه قدم حداً للاعتبار رآه أكثر بياناً وأحسن صياغة وأتم تحريراً، فقال: "الاعتبار هو النظر في المسألة مع استحضار نظائرها والالتفات إلى لوازمها ومراعاة نقائضها، مع صحة المناسبة."[3] فلا يبقى هناك مبرر للذين يشنعون على علماء السلف قصور فهمهم لمعنى الاعتبار في أنهم ضيقوا مجاله، فجعلوه حداً للقياس فقط، وقرنوه بالفقه التشريعي دون الحضاري، بل الظاهر البيّن أن علماء السلف -لا سيّما المحققين منهم- لم يكونوا يفصلون في كتاباتهم وتآليفهم بين الفقه التشريعي والفقه الحضاري إلا ما حصل من بعضهم، فجمدت كتب الفقه عند هؤلاء على الأحكام دون الأسرار والمقاصد والآثار الحضارية: اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، ويكفي هنا الإشارة إلى إبداع الغزالي في كتبه لا سيّما الإحياء منها، وتجديد العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام، وابن تيمية في فتاويه وغيرها، والشاطبي في الموافقات، وابن القيم في إعلام الموقعين، وابن خلدون في المقدمة.

لكن في مقابل ذلك ودون غمط هذه الإشراقات والإبداعات حقها في تاريخ العلم الإسلامي والإنساني العالمي، فإن "هذا العقل الإسلامي الفذ، الذي تمكن من فتح باب العلم على مصراعيه، وشيد أعظم صروح المعرفة الإنسانية في الدنيا، نراه -وللأسف الشديد- قد أهمل دراسة أبعاد وعمق حركة التاريخ في القرآن الكريم، رغم الاهتمام الكبير بدراسة قصص القرآن الكريم، والتأمل الواسع بما جاء فيها؛ إلا أنه تناولها بطريقة السرد التأريخي، دون أن يحاول استخلاص مافيها من روح

(١) مرجع سابق، ص٢٩.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٨، ص٧٢.

(٣) عكيوي، **نظرية الاعتبار في العلوم الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٧.

واستكشاف ماوراءها من سنن وقوانين، تحكم حركة التاريخ والمجتمع."[1] ولعل التفسيرات التجزيئية المعتمدة في فهم القرآن الكريم والمحكومة بنسق فقهي اختار لنفسه أو فرض عليه أن يهتم أكثر بالفقه الفردي على حساب فقه الأمة، وفقه الكونيات والاجتماعيات والإنسانيات، وبسياق تاريخي ذي أبعاد ثقافية واجتماعية، من بينها تلك التأثيرات السلبية لصورية المنطق اليوناني وخيالات السفسطة الإغريقية الحالمة المفصولة عن النظر والتأمل في الكون والمقطوعة الصلة عن كل محاولة علمية للاقتراب التجريبي من ظواهر الكون وحقائق الطبيعة، هي التي حجزت النظر الفقهي عن المضي قدماً نحو صياغة رؤية كلية تمكن العقل المسلم من امتلاك منظومة معرفية ومنهجية متكاملة تستجيب للنقلة الحضارية التي سعى القرآن الحكيم لإحداثها، من هنا لا بد من القول: إنّ "على مفكري الأمة وعلمائها أن يعيدوا النظر في منهجية فكر الأمة، بحيث نعيد التوازن فيها بين دور النص للاستجابة للهداية الإلهية، والإفادة من إيجابيات مفردات التراث وعبر التاريخ ودروسه، ودور العقل والمعرفة الإنسانية في معرفة الواقع وفهم العلل والطبائع الكونية في الأنفس والمجتمعات والكائنات لتسخيرها، وتنزيل مواقع الهدي الإلهي منها موقعها الصحيح في ترشيد الغايات والقيم والمفاهيم والأنظمة والممارسات، وتفعيل طاقات الإيمان ووازع الضمير وحس الجهاد والمسؤولية في أداء الفرد والمجتمع"[2] ودعوة القرآن المجيد إلى النظر والاعتبار، لتحقيق الهداية السننية للعالم لا تزال تحمل في مكنوناتها حكمة الله تعالى وسنته في أن يبسط الإنسان رداء التأمل والتدبر، والاستبصار على آفاق الكون الرحب، ويكشف أسرار حركة التاريخ والاجتماع البشري، ويتحرر من كل وصاية أو استعباد فكري باسم الآبائية والصنمية، وينزع عنه كل صنوف الطغيان والاستكبار الحائل دون الإفادة من هدايات القرآن العظيم، ذلك "أن مساحة كبيرة في سوره وآياته قد

(١) عويس، عبد الحليم. **تفسير التاريخ علم إسلامي**، القاهرة: دار الصحوة للنشر، (د. ت.)، ص١٠٤.

(٢) أبو سليمان، عبد الحميد. "الإصلاح التربوي: العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية المعرفية والأداء التربوي"، **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد (٢٩)، السنة (٨)، صيف ٢٠٠٢م، ص١٦٧-١٦٨.

خصصت لمعالجة حالات الأمم السابقة بأبعاد واتجاهات مختلفة... لتجارب عدد من الجماعات البشرية، تتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات البشرية عبر الزمان والمكان، مروراً بمواقف الإنسان المتغيرة... وتبلغ هذه المسألة حداً من الاتساع في القرآن، بحيث إن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو إشارة لحدث ما أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ"[1] وهو مما يوسع أفق الرؤية الحضارية التي تستوعب الماضي والحاضر، وتستشرف المستقبل، وتستمد روح الأمل لصناعة التاريخ واستعادة الوراثة الحضارية من المقومات السننية المبثوثة في آيات القرآن المجيد، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿... وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٥١-٢٥٢]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الاحزاب: ٦٢]. وهذه الآيات وغيرها هي آيات في الفقه السنني التاريخي تؤكد على أنه "من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء؛ إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة. فلا يكاد يتفطن له إلا آحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول، سنة الله قد

(١) سلمان، **النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ**، مرجع سابق، ص٥٣.

خلت في عباده."[1]

وفي القرآن الكريم آيات تدعو إلى السير في الأرض تنبيهاً للعقول على معرفة أحوال الأمم السابقة للنظر والاعتبار بما كانت عليه حال قوتها وضعفها، وقيامها وسقوطها، ففي القرآن "دعوة متكررة إلى دراسة الاجتماع الإنساني ابتداء من الماضي حتى الحاضر، لاكتشاف آثار سنن الله في قيام المجتمعات وانهيارها. ولتدبر صدق هذه السنن الاجتماعي يستعان بأسلوب التأويل من خلال دراسة ما آل في الحياة الاجتماعية من تقريرات قرآنية. وهذا يتطلب أن تفرز التربية -علم اجتماع إسلامي- تكون قوانينه وقواعده منطلقات تساعد على التدبر الاجتماعي في القرآن.."[2] وقد ورد الأمر بالسير في القرآن ست مرات، وبصيغة الاستفهام سبع مرات،[3] وحيثما ورد لفظ السير يرد معه لفظ النظر أو ما يحيل على دلالته ومعناه،[4] يقول الراغب الأصفهاني موضحاً دلالة لفظ السير: "قيل: حث على السياحة في الأرض بالجسم، وقيل: حث على إجالة الفكر ومراعاة أحواله"[5] فليس السير هنا مقصوداً لذاته، وإنما لما يلزم عنه من العبرة ومعرفة سنن الله تعالى في خلقه، وهو عين ما أشار إليه ابن القيم بعد أن ذكر آية السير في الأرض الواردة في سورة محمد: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١١] بقوله: "فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله.

وكذلك كل موضع أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه بالسير في الأرض سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب، أو السير المعنوي بالتفكر والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما وهو الصواب، فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا

(١) ابن خلدون. **المقدمة**، مرجع سابق، ج١، ص٣٢١.

(٢) الكيلاني، **مناهج التربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٤٣.

(٣) عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن**، مرجع سابق، مادة: (سير).

(٤) انظر: [آل عمران: ١٣٧]، و[العنكبوت: ١٩]، و[الروم: ٨]، و[فاطر: ٤٥]، و[غافر: ٨١]، و[الحج: ٤٤].

(٥) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، مادة: (سير)، ص٢٤٧.

أمر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أولي الأبصار بالاعتبار بما حل بالمكذبين، ولولا أن حكم النظير حكم نظيره حتىٰ تعبر العقول منه إليه ما حصل الاعتبار. وقد نفىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم... وكل هذا من الميزان الذي أنزله الله تعالىٰ مع كتابه العزيز وجعله قرينه ووزيره"[1] وهذا هو المراد بالنظر المأمور به شرعا، فقد يتحقق النظر بالعين كما يمكن أن يتحقق بالعقل، فقد يكون بصرياً حسياً، وقد يكون قلبياً عقلياً، قال الراغب: "النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يرا به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية... واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامة، وفي البصيرة أكثر عند الخاصة..."[2] كما هو حال السير أيضاً. لكن السير الحسي والنظر البصري ليسا مطلوبين لذاتهما بل هما من الوسائل المفضية إلىٰ السير الفكري والنظر العقلي.

ولعله من قلة الفقه وعظيم الغلط أن يقتصر في تحديد معنىٰ النظر الوارد في الآيات القرآنية علىٰ العين فقط، بل النظر القرآني هو نظر العين والقلب والعقل كما أشار إلىٰ ذلك ابن تيمية في الفتاوي،[3] معتبراً أن "النظر جنس تحته حق وباطل، ومحمود ومذموم."[4] وأكد القرطبي علىٰ أن النظر المأمور به هو نظر الاعتبار لا مجرد نظر الإبصار المجرد عن التفكر،[5] قال ابن عاشور مفسراً قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]: "وأريد النظر في آثارهم ليحصل منه تحقق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا علىٰ المستضعفين، فاستأصلهم الله،

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، رتبه وضبطه: محمد عبد السلام إبراهيم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص٩٦.

(٢) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٥١٨-٥١٩.

(٣) الحراني، **مجموع الفتاوىٰ**، كتاب: التفسير، مرجع سابق، ج٣، ص٢٢٢.

(٤) المرجع السابق، كتاب: السلوك، ج١٠، ص٤٨٦.

(٥) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج٧، ص٥٣٣.

لتطمئن نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدة عيان، فإن للعيان بديع معنى؛ لأن المؤمنين بلغهم أخبار المكذبين، ومن المكذبين عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس، وكلهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم"[1] وقد جاء في القرآن مايفيد التعجب والاستغراب من قوم آتاهم الله من وسائل المعرفة وموجبات الاعتبار فأعرضوا، فلم ينظروا في أحوال الأقوام وعواقب الأمم المكذبة برسل الله وكأنهم لم يتخذوا السير في الأرض سبباً لمشاهدة طبائع العمران وتقلبات الأمم، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]. إن نتيجة هذا الاستكبار عن بصائر الوحي وتنكب الحق في هداية العالم هو تحقق الوعيد الإلهي بالصرف عن آياته وسننه ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وتعليل القرآن السير في الأرض بتحقق النظر والاعتبار هو جزء من رؤية القرآن المقاصدية التي تدعو العقل المسلم إلى الربط التعليلي التلازمي بين العاقبة ومسبباتها، ومآلات الأمور ومقدماتها. وهو طريق برهاني ومسلك استدلالي لإرشاد الخلق إلى مشاهدة أحوال الأمم والتأمل في مصائرهم وعاقبة أمرهم بعد مخالفتهم كلمات الله وتكذيبهم لرسله.

وفي ذلك كله تقعيد لمنهج البحث العلمي القائم على الحس والتجربة والعقل، وهو منهج متكامل يحرك البصائر والعقول لاستقبال ما يرد إليها من الحس والتجربة لاكتشاف أسرار النفس والمجتمع، وتأمل الأحوال والوقائع وطباع العمران وقواعد العادة وأصول التحضر والاجتماع الإنساني، "ومن ثم فلا يتصور أحد أن الإسلام ما جاء إلا لكي يؤكد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الأخلاقية والروحية

(١) ابن عاشور، **الطاهر التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٤، ص٩٧.

فحسب... إننا بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات... إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف، بين التلقي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها... بين تحقيق مستوى روحي عال على الأرض وتسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادي ... ولم يفصل الإسلام -يوماً- بين هذا وذاك."[1]

والسير في حقيقته يفيد التحول والحركة والتجدد، وهي حركة تتبع تدفق السنن وعملها في ظواهر الكون والحياة والمجتمع، فتبصر ما لا يبصره الساكن القاعد سواء قعد ببصره عن النظر السنني أو قعد ببصيرته. ونبهت آية العنكبوت ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٩] إلى فكرة الإيجاد والتعاقب في الخلق أفراداً وأمماً، ودعت إلى مشاهدة آثارها والنظر في أسرارها، وأنه تعالى إنما "أمر بالسير في الأرض؛ لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحتوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيراً من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولانالم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه؛ لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده، قبل حدوث التفكير في عقله، اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها، حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائباً عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل، فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة."[2]

إن النظر هو نظر في الحال والعاقبة وحقيقة ما آلت إليه مصائر الأمم لما تحيد عن

---

(١) خليل، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٥.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢١، ص٢٣٠.

منهج الله وسننه، وهو نظر تعليلي استدلالي تركيبي يدعو إلى التأمل لاستنباط الحكمة وعدم الغفلة عن مبدأ المشاكلة والمماثلة عبر ظواهر التاريخ الجارية، وما حصل من إهلاك الله لمجتمعات وحضارات بسبب تكذيبهم وطغيانهم، فلا يقع من أحد ممن تدبر هذا المعنى إنكار. وفي هذه الآية، وفي غيرها من الآيات "دلالة على أهمية علم التاريخ؛ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها"[1] وهو عين ما أكد عليه رشيد رضا في المنار فقال: "وليس التاريخ من حيث هو تاريخ حدا من العلوم التي تطلب من الكتاب الإلهي، ولم يذكر فيه شيء منه بقصد سرد حوادث التاريخ، وإنما جاء ما جاء فيه من ذكر أمم الرسل للعظة والاعتبار، وبيان سنن الله تعالى في الأمم والأقوام، وتثبيت قلب خاتم الرسل ﷺ"[2] ففي كثير من آيات القرآن الكريم يبرز منهج قرآني يعمل على تنمية الوعي التاريخي والإحساس بأصالة التاريخ والتأكيد على مرجعية السير في الأرض للاتعاظ والاعتبار بعواقب الأمم، وتسخير الوقائع وإحكام منظومة السنن بهدف التحكم في مسار حركة التاريخ. فقد دلت آيات سورة غافر [غافر: ٨٢-٨٥] على أن عدم السير في الأرض ينتج عنه الغفلة عن حقائق الكون والتاريخ، ولا يغني عن الأفراد والأمم شيئاً مهماً بلغوا من الكسب المادي والعلمي. وأي علم لمن أعرض عن السير في الأرض ولم يتحقق بمقصود النظر في أحوال الغابرين وهي سنة ماضية، وفي آية [الحج: ٤٦] دليل على أن السير حسي ومعنوي، يكون مشروطاً بوسائط المعرفة: البصر، والسمع، والعقل، وفيها أيضاً إنكار على أولئك الذين جمدوا وظائف العقل والسمع والبصر، ونجد في آية [الروم: ٩] دعوة إلى الوعي السنني، والوعي بحركة التاريخ وصيرورة العمران والتحولات الواقعة في الحضارات، وقد دل السياق العام لآيات [الإسراء: ٧٧-٨٠] على أن سنة الله هي مدخل الصدق وهي مخرج الصدق؛ هي مدخل صدق لإقامة دين الله تعالى وعمران العالم، وهي مخرج صدق من فساد العمران وخراب

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٩٧.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٢١٢.

الأمم. ولأنها من الله كانت في حقيقتها سلطاناً نصيراً. فمن ملك ناصية فقه السنن وعمل به وسار على شرعته ومنهاجه فإنه لا شك سيكون منصوراً لأن سلطان النصر والتمكين والعمران تحصل لديه من جميع أطرافه.

وفي آيات سورة فاطر ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٣-٤٤] وصف مواجهة المعاندين لمنهج الله بآليتين: آلية النفور والصد، وآلية الاستكبار والمكر السيئ، ويترتب عن ذلك حصول وعيد الله تعالى وقدره الذي لا يرد، وسنته التي لا تقبل تبديلاً ولا تحويلاً. ثم عطف على هذه الآية قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً... ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤] "استدلالاً على أن مساواتهم للأولين تنذر بأن سيحل بهم ما حل بأولئك من نوع من يشاهدونه من آثار استئصالهم في ديارهم. وجملة ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في موضع الحال؛ أي كان عاقبتهم الاضمحلال مع أنهم أشد قوة من هؤلاء فيكون استئصال هؤلاء أقرب."[1]

وقد دلت جميع هذه الآيات القرآنية على أن السير في الأرض يورث معرفة سننية واستبصاراً واعتباراً بوقائع الأمم وأحداث التاريخ، وإن كانت آية آل عمران صريحة في العلاقة بين السير في الأرض واكتشاف منظومة السنن التي حكمت حركة الحضارات وعاقبة الأمم المكذبة بسنن الله ورسالات أنبيائه، كما دلت هذه الآيات على أن الإحاطة بفقه السنن وضبط منظومته الكلية لا يتعلق بمجرد تجميع لأخبار الأولين أو تكوين تراكم معرفي تاريخي عن أحوال الأمم والحضارات، بل هو أكثر من ذلك؛ إنه نظر واعتبار واستبصار ينطلق من الواقع والتاريخ ويستصحب معه رؤية القرآن من خلال نظرة موضوعية للنصوص المتعلقة بموضوع السنن بهدف استخلاص

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٣٣٧.

قواعد عامة تحكم سير المجتمع والحضارة. وبذلك يكون هذا السير المفضي إلى النظر والاعتبار طريقاً نحو كشف الغيب الذي أذن الله تعالى لمن سلك سبيل السنن أن يطلعه عليه، قال الكافيجي (توفي: ٨٧٩هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغيب نوعان: نوع لا يطلع عليه كالمغيبات الخمس التي لا يعلمها إلا الله، ونوع يطلع عليه بنصب الدليل الدال عليه، نحو ذات الباري عَزَّوَجَلَّ وصفاته والمصنوع دليل عليه؛ ولهذا أمر بالنظر بقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]."[(١)]

لكن يتساءل عمر عبيد حسنة متحسراً: "أين السير في الأرض المأمور به شرعاً، والتوغل في التاريخ، واكتشاف السنن التي طلب القرآن تحصيلها، والاهتداء بها إلى الفعل الصواب، والاتعاظ بما تحقق منها، في إطار الأمم السابقة، والقيام بعملية المغالبة بين سنة وسنة، وبين قدر وقدر؟ إن قسماً كبيراً من المسلمين اليوم، يسيرون في الأرض، ويذهبون إلى بلاد الحضارات الأخرى، سير البلهاء، والمغفلين اللاهين، الذين ينتهي بهم قصدهم ويتحقق على مزابل الحضارة الغربية وإباحيتها، أو على أحسن الأحوال يقرأون الحضارة الغربية قراءة خاطئة لا تسمن ولا تغني من جوع، وقد تسخرهم وتسحرهم، بدل أن يسخروها، ويعتبروا بإصاباتها."[(٢)]

إن السير الذي دعا إليه القرآن هو سير كلي شمولي في الزمان والمكان، يمتد من الحاضر إلى الماضي استشرافاً للمستقبل؛ إذ هو سير لا تستغرقه تفاصيل الأحداث ولا تستهويه جزئيات الوقائع، وإنما ينظر في صيرورتها المحكومة بسنن، و يعبر بنظره وبصيرته على هذه الجزئيات كشفاً عن الارتباطات والعلاقات التي تحكم ظواهر العمران وحركة التاريخ. "وهنا قضية أخرى لا بد من لفت النظر إليها أيضاً: وهي أن الدعوة للسير في الأرض، التي حث عليها القرآن، إنما هي في الحقيقة للاستدلال

---

(١) الكافيجي، محمد بن سليمان. **التيسير في علم التفسير**، تحقيق: ناصر بن محمد المطرودي، دمشق والرياض: دار القلم ودار الرفاعي، ط١، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص٢٢١.

(٢) حسنة، **من فقه التغيير: ملامح من المنهج النبوي**، مرجع سابق، ص٩٥.

والتأكد من فاعلية السنن، التي قررها القرآن، وعدم تخلفها، من جانب، والامتداد والاكتشاف لسنن أخرىٰ بالاستقراء والملاحظة، وديمومة النظر العقلي، من جانب آخر"[1] وكأننا أمام ملمحين من ملامح السير في الأرض: ملمح برهاني يتخذ فيه السير في الأرض مناط الاستدلال علىٰ وجود السنن التي أرشد إليها القرآن المجيد، وسبيلاً للتحقق من فاعليتها وفحص كفاءتها الإنجازية والتسخيرية، وملمح إبداعي اجتهادي يتخذ فيه السير في الأرض دافعاً نحو الاستبصار السنني باكتشاف سنن أخرىٰ مبثوثة في حركة التاريخ والاجتماع البشري. ولا يتحقق هذا السير والنظر إلا بالرؤية التكاملية التي توحد بين العلوم والمعارف، وتوظف مختلف الكشوفات والمستجدات في ميادين العلم بما لا يتعارض مع نصوص الوحي ومقاصده الكلية، وهذا هو السير المسدَّد بالنظر المسدِّد "إن طلب السير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات، جعله النص الإلهي من الفروض الكفائية التي تفضي إلىٰ التبين والتبصر، والاهتداء إلىٰ السنن الاجتماعية في السقوط والنهوض، واختزال التاريخ الإنساني، وتحقيق الاعتبار، وإضافته إلىٰ عمر الأمة المسلمة وتجربتها، لتحقق بذلك الوقاية الحضارية، وتتعظ بأحوال السابقين."[2] ولعل الخروج من مأزق التخلف والوهن الحضاري للأمة الإسلامية اليوم رهين بمدىٰ استيعاب نخبها العلمية وقياداتها الفكرية والسياسية -ذات المرجعية الإسلامية- لتجارب التاريخ الإنساني وأحوال الماضين مع استدامة السير في الأرض والتنبه للسنن الحاكمة لمسار الحضارات نهوضاً وسقوطاً، خصوصاً أن هذه النخب تملك المصدر الأساس للسنن وهو الوحي، وتملك الوسائل الكفيلة بتحقيق مقصود الاستبصار من الدورات الحضارية التي عرفتها أمم العالم بهدف تجاوز الإصابات والعلل، وإنهاء حالة الوهن، مع ضرورة إحكام ما أمر به

---

(١) كنعان، **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**، مرجع سابق، ص١٣، من تقديم عمر عبيد حسنة.

(٢) حسنة، عمر عبيد. **الشاكلة الثقافية: مساهمة في إعادة البناء**، بيروت: المكتب الإسلامي، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، ص٨٥.

الوحي لإتمام عملية اكتشاف السنن وفهمها واستثمارها ويتعلق الأمر بعلوم التاريخ والاجتماع، وعلوم الطبيعة والمادة.

إن "القرآن الكريم عندما يطرح مفهوم"السير" في الأرض، و"النظر والتأمل" في الأنفس والآفاق، إنما يريد بذلك سيراً شاملاً ونظراً متكاملاً، يرتكز على ما أبدعه الإنسان وتوصل إليه من علوم ومعارف متنوعة، يستعين بها على قراءة ما تحمله الأرض من آثار وعواقب تاريخية، تختزنها عن الماضي."[1]

يكسب هذا الفقه السنني العمراني ذو الرؤية المجتمع الرسالي قدرة على الفعل والإبداع والتحرر من ضغط الواقع ومن مذاهب الحتمية والعبثية والعدمية، كما ينمي لديه وعياً جمعياً بحقيقة تحولات وتقلبات الأحوال وفق طبائع النفس والعمران فيدرك سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد والاستبدال والنصر والتمكين، ويؤسس تقييمه ونظرته للوقائع ومجريات الأحداث على رؤية موضوعية دقيقة تكشف عن جوانب الضعف وعوامل الهزيمة وتضع أصبعها على سنن النهوض والبناء عبر استقراءات وتعليلات محكمة ومراجعات تحليلية ونقدية صريحة بعيداً.

ثانياً: المستقبلية في الرؤية القرآنية السننية ودلالات ختم النبوة:

بين النظر السنني والاستشراف المستقبلي علاقة ترابط لا تخفى، فكما حكمت السنن حركة التاريخ والحضارات السابقة تحكم أيضاً حركة المستقبل، فلا تبديل ولا تحويل لسنن الله تعالى، وهو ما يعني أن توجيه المستقبل والتحكم في مساراته رهين بمدى إتقان الصنعة السننية، واستثمارها في بناء خيارات جديدة تمكن الأمة من العودة إلى ريادتها الحضارية من حيث هي أمة الرسالة الخاتمة. ولعل الشرط الأول في المستقبلية في الرؤية القرآنية السننية هو تجاوز بؤس الوعي التاريخي، وتنمية الوعي بالدلالات العميقة لختم النبوة ووسطية هذه الأمة وخيريتها، وتعميق الإحساس

(١) الكفيشي، **حركة التاريخ في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٣٤٦.

بأصالة ومرجعية ووظيفية التاريخ بوصفه قوة دافعة ومحركة توفر للإنسان رؤية واقعية وعلمية متوازنة للاجتماع البشري خلال مسيرته الاستخلافية، تعبر به من الماضي إلى الحاضر بعيداً عن الرؤى الحالمة، أو الماضوية العاجزة، أو الحاضرية الآسرة، وتمكنه من الإفادة الحضارية والاستثمار التسخيري للفعل التاريخي لصناعة المستقبل وفق منهجية أرسى معالمها القرآن الكريم، لتتحقق هذه الإفادة. "وإذا قلنا إن الحاضر هو مستقبل الماضي، وماضي المستقبل؛ أدركنا قيمة الرؤية القرآنية في رصد معالم المستقبل، وهي رؤية تمتلك كامل مقوماتها لاكتشافها السنن والقوانين الناظمة لحركة التاريخ البشري، والاهتداء بها نحو استشراف ما سيأتي في الغد."[1]

إن حقيقة الفقه السنني العمراني كما أرشد إليه القرآن الكريم تكمن في إحكام النظر المستقبلي، والإفادة من عبر التاريخ ودروس الماضي وأحوال الأمم والحضارات، وتجاوز لحظات الضعف والهزيمة، واستشراف إمكانات النصر والتمكين، وعدم الوقوع ضحية تبريرات أو انتظارات وهمية خادعة.

١ - المستقبلية في الرؤية القرآنية السننية

إن مسيرة التاريخ هي مسيرة الفاعلية الإنسانية والجهد البشري نحو الأقدار التي سبقت في علم الله تعالى، وهي أقدار السنن التي شاء الله تعالى أن يجري عليها حركة التاريخ والاجتماع البشري فينتفع بها الإنسان، ويعيها، ويحدد من خلالها صورة المستقبل الذي يريده. وبذلك يصير الوعي التاريخي وعياً مستقبلياً رسالياً تحكمه أبعاد حضارية، ويصبح الوعي المستقبلي وعياً سننياً باستناده على قاعدة تاريخية تستغرق الماضي بوقائعه وعبره، وتمتد نحو الحاضر بأحداثه ودروسه، ويصبح كل من الوعي التاريخي والوعي المستقبلي الرهان الأساس الذي يؤهل الأمة اليوم لاستشراف غدها والتخطيط لمستقبلها.

---

(١) المرجع السابق، ص٥١.

ولقد أصبحت قضية الاستشراف والتخطيطِ المستقبلي قضية مركزية في المشاريع الحضارية والإصلاحية الكبرىٰ. وبالرغم من ثراء نصوص الوحيين -قرآناً وسنةً- وغناهما بما يُوَجِّهُ الأمةَ إلىٰ النظر والاستشراف المستقبلي فإن حالها اليوم لا يعكس استجابتَها بالقدر المطلوب.

ولذلك كان الحديث عن الفقه الاستشرافي المستقبلي المؤسس علىٰ الرؤية القرآنية والتطبيقات النبوية -كما سيأتي بيانه- مطلباً شرعياً وحضارياً وواقعياً، من حيث إن "الاستشرافية المستبصرة سند أساس لموضوعية الاستعداد، وواقعية تصور الآفاق، وفعالية المواجهة بعد ذلك؛ لأن الفرد والمجتمع بهذه الاستشرافية المستبصرة لا يؤخذان علىٰ حين غرة، بل بإمكانهما استيعاب التحديات والتكيف السريع معها، مهما كانت شدة وطأتها في بداية الأمر... ولا شك أن هذا من شأن الثقافة السننية والوعي السنني"[1] ولعل غفلة كثير من المسلمين اليوم عنه -إما بسبب سوء فهم عقدي، أو تعبير عن عجز علمي ومعرفي، أو استسلام للواقع وعدم إحكام صنعة دفع الأقدار بالأقدار- تنبؤنا بعمق أزمتنا المعاصرة.

والمستقبلية رؤية معرفية تقوم علىٰ إدراك حقيقة الزمن والقدرة علىٰ التحكم في إحداثياته وتوجيهه وفق أهداف وغايات. والمستقبل بالتعبير القرآني هو الغد؛ والغد ليس زمناً ينتظر، وإنما وعاء تاريخي يستوعب حركة المسلم، وتتلمس معالمه من خلال مقدمات سابقة تكون بمثابة مؤشرات عن طبيعة ذلك الغد. وهذه الحركة هي حركة سننية في حقيقتها تدرك الأبعاد الثلاثة للزمن: الماضي والحاضر والمستقبل في صيرورة تترابط أجزاؤها، يحكمها منهج الوحي ونور العقل وسلامة الفطرة بعيداً عن التخييلات والأحلام والاستيهامات المرضية.

ويدل المستقبل علىٰ الآتي بعد الحال، ويمثل الحلقة الثالثة في سلسلة الزمن الممتدة

---

(١) برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق، ص١٣١.

التي يكون فيها الماضي لحظة متقدمة نحن مأمورون بالسير فيه بأنظارنا للاعتبار، والحاضر حالاً غير مكتمل المعالم، ويكون متلبساً بصفة الحركة والتغير، والمستقبل وهو الآتي بعد الحاضر، هو الحلقة الأكثر انسياباً واستجابة للتحكم الواعي للإرادة والحرية الإنسانية، "ومن هنا يصبح التحول الرئيسي هو في أن الآتي بعد الحال أي المستقبل ليس دهراً؛ أي رسمت ملامحه مسبقاً، وإنما هو إيقاع حركي يمكن للتدخل الواعي والمتعمد أن يحدده منذ الآن وهو مايضفي قيمة أسمى على مفهوم الحرية بوصفها قيمة سياسية واجتماعية عليا"[1] ولا تجد في القرآن الكريم عرضاً خطياً متتالياً للزمن التاريخي، وإنما نجد أنفسنا أمام بنية متداخلة متشابكة تتناغم فيها الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل بكيفية لا نشعر فيها بلحظة الانتقال والتحول من زمن لآخر، سواء كان زمناً متناهياً أو زمناً غير متناهٍ، وسواء تعلق بالكسب البشري أو بالجزاء الإلهي، وسواء تعلق بكينونة الفرد أم بمصير الجماعة، وسواء تعلق بالتفكر والاعتبار أم بالاستشراف والاستبصار.

ومن الأصول المقررة الناظمة للمستقبلية وفق الرؤية القرآنية السننية، التي ينبغي أن تحكم كل تناول لدراسة المستقبل واستشرافه وفق سنن الله تعالى في التاريخ والاجتماع البشري أصول أربعة:

- الأصل الإيماني: وهو أصل عقدي مكين في أن المستقبل وعد الله وقدره الذي لا يتخلف ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]. ومتى استكمل المسلم شروط تحقق الوعد الإلهي لأهل الإيمان ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، استخلفه الله في الأرض، ومكن الله له وبدله من بعد خوف (أزمة وغمة) أمنا. وقد كان ﷺ الغاية في تمثل هذا الأصل وفي تربية أصحابه وهو يدير الأزمات التي واجهت الأمة على مستوى الفرد والمجتمع والدعوة والدولة منذ أن بشر بالرسالة؛

(١) عبد الحي، وليد. **الدراسات المستقبلية في العلاقات الدولية**، مراكش: عيون المقالات، ط ٢، ١٩٩٣م، ص١٣.

النور الخالد. وقد أسهمت التربية الإيمانية القرآنية في وحدة الصف وتجاوز هذه الأزمات من خلال مقتضيات التوحيد والتوكل وتسليم الأمر لله (الثقة واليقين)، واحتساب الأجر والتجرد من الحظ الدنيوي والدعاء مع عدم الاغترار بالجهد العلمي المبذول، لاستشراف المستقبل وإدارة الأزمات وتوقعها؛ لأنه جهد نسبي احتمالي ظني غير يقيني ويبقى على الدوام محكوماً بالإرادة والمشيئة الإلهية ومثل الدعاء والتوجه إلى الله يتقوى ذلك الظن لتوسله بالإرادة الربانية الحكيمة العليمة. "إن الإيمان الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء دائماً بمثابة معامل حضاري يمتد أفقياً، لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب، ويوجهها في مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها، فيزيدها عطاء وقوة وإيجابية وتناسقاً... كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان، ليبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية، ويقظة الضمير، ويدفعه إلى سباق زمني موصول لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجر طاقاته."[1]

- الأصل الأخلاقي القيمي: وهو أصل متفرع عن الأصل الأول ومؤسس عليه؛ إذ الإيمان الحق هو الذي يثمر قيماً وأخلاقاً قادرة على البناء والعطاء. والقرآن الكريم يشدد على الوعي بقيمة الزمن ومركزيته في إحداث النهضة والتمكين العمراني الحضاري. فـ"العالم البشري قبل نزول القرآن،لم يكن قد دخل في تفكيره وعي مفهوم الزمن بمنظور شامل للحياة، وبعد مستقبلي لحركة التاريخ. ولكن منذ أن بزغ فجر الإسلام، أخذ القرآن الكريم يقدم فلسفته الحضارية عن الزمن، فأعطاه بعداً كونياً شمولياً، صانعاً للتقدم والتأخر، والنجاح والفشل."[2] ولعل تتبع فكرة الزمن في سياقات الآيات القرآنية وهي ترسخ الوعي بها وبوظيفيتها الحضارية يجعلنا نقف على منظومة من القيم الفاعلة والنابعة من قيمة الزمن ذاتها كقيمة مركزية، مثل قيمة

(١) خليل، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٤١.

(٢) الكفيشي، **حركة التاريخ في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٢٦٤.

الفاعلية والإنتاجية، والأمانة وتحمل المسؤولية، وتجاوز العقلية التبريرية، والمبادرة والمسارعة والمسابقة إلى الخيرات وعدم الاستعجال...

- الأصل المعرفي: إن المنطلق المعرفي في الرؤية القرآنية للمستقبل يقوم على إثارة العقل الإنساني للنظر المتبصر في الغد، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر: ١٨]. والنظر إلى الغد ليس مطلوباً لذاته، بقدر ماهو نظر في الحصيلة العملية لهذا الغد التي تحسم الجزاء النهائي والمصير الأخروي للإنسان. إن النظر إلى الغد القريب أوالبعيد ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧﴾ [المعارج: ٦-٧] هو تقييم وتقويم استباقي لنتائج السعي والكدح البشري، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق: ٦]. إن القرآن الكريم يهيء الفرد للاستعداد لملاقاة تلك الحصيلة التي ترتبت عنها حركة الكدح الإنساني في الدنيا، ويحيطه علماً بتفاصيل الوعد المستقبلي الإلهي الأخروي: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢]، وبشروط ومقومات تحقق الوعد الإلهي بالنصر والتمكين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور: ٥٥]. وهذا وعد إلهي مستقبلي بانتصار الاسلام والتمكين للمسلمين في اتجاه العالمية وتحقيق مقتضيات الخيرية والوسطية والشهادة، لا يمكن للإنسان المسلم إلا أن يسعد به، ويعد مستلزماته. هذه وغيرها صور من الغد الموعود والمأمول، المأمورون شرعاً بتوجيه حياتنا الحاضرة بالشكل الذي يبلغنا منتهى ذلك الغد الموعود. ويقوم هذا الأصل المعرفي على:

- وضوح المرجعية الموجهة والرؤية الناظمة للفعل الحضاري في استحضارها لقيمة المستقبلية.

- النظر الكلي المقاصدي الذي يتحرك بفقه الأولويات والموازنات، وينظر في تزاحم الفرص المتوقعة والتهديدات المحتملة فيكون أبعد عن الاغترار، أو العجز والاستسلام.
- مركزية الوعي بالزمن (الوعي التاريخي) في الرؤية المستقبلية القرآنية لإنجاز مقتضيات المشروع الرسالي الحضاري، مما يدل على الواقعية في التعامل مع معطيات الحاضر، ورفض كل نزوع مثالي لا يستحضر السنن، ولا يعبأ بنتائج السير في الأرض.
- الأصل التنظيمي: ويتعلق بالجانب الإداري والهيكلي والتدبيري من خلال اعتماد أجهزة التخطيط والتنفيذ والتوجيه والضبط والمتابعة والحماية والتقويم والاستشراف.

إن قيمة الوعي بالمستقبل في الرؤية القرآنية السننية تقوم على تمكين الإنسان نسقاً من العمليات والإجراءات والخبرات المعرفية والقيمية والنفسية للتعامل الإيجابي والاستشرافي مع المستقبل. وكثيراً ما شدد القرآن الكريم على مفهوم الحكمة وعلاقتها بتبصر المستقبل والاعتبار بالماضي، "إن فضيلة الحكمة لها قيمة متميزة في ما يخص المستقبل. والحكمة هي قابلية استخدام المعارف العامة المكتسبة في الماضي في المواقف غير المألوفة، أو المتصفة بالتحدي التي تواجهنا في المستقبل. والحكمة يمكن أيضاً أن تعرف بكون المرء قادراً على الإمساك بالمنظور الواسع للواقع، وباستخدام هذه المعرفة لتحسين الحياة... وتربط الحكمة إرث ودروس الماضي بعمق التفكير والانفتاحية والإبداعية المطلوبة للمستقبل. وتتضمن الحكمة تركيبة موسعة للوعي الزمني"[1] وقد وضع القرآن الكريم بين يد الإنسان الحكمة والمعرفة والتاريخ، كما أمده بمنهاجية كونية توحيدية تعمق الفهم العلمي الرصين بها، وتجعله أكثر انفتاحاً على البدائل والخيارات الممكنة.

---

(١) سينيثيا، واغنر. **الاستشراف والابتكار والاستراتيجية**، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٤٤٥.

وفي علم السنن مكنة واقتدار علمي على استنباط الدروس والعبر، وتقعيد القواعد، وتأصيل الأصول التي تجعل الأمة تعرف ما الذي تريده في مستقبلها فتتحكم به بناء على استقراء متبصر، ورؤية متوازنة لا يتعارض فيها ذلك مع قدر الله ومشيئته، ولا تستسلم لما هي فيه من الضعف والهوان؛ إذ البشارات القرآنية والنبوية تنهض شاهدة على نهوض الأمة بعد كبوتها الحضارية، تلقي هذه البشارات بالمسلم نحو استشراف المستقبل والإعداد له بوعي سنني متكامل.

إن "التفكير المستقبلي لا يمكن أن يستشرف آفاق الغد -بهداية الله تعالى- إلا إذا أدرك القوانين والسنن الكونية والتاريخية التي يسير بمقتضاها العالم، والتي تؤثر في مصائر الأمم ومنعطفات التاريخ. وليس صدفة أن آية كريمة تالية في سورة الروم... تنبهنا إلى النظر في السنن والقوانين التاريخية لطبيعة سير العالم بالقول ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩]، ... فالسير في الأرض دعوة عملية وعقلية لاستقراء وتتبع ورصد آثار الحضارات الماضية مع مظاهر الحضارات القائمة من واقع التجربة الإنسانية،... وهذا يعني أنه من إدراك سنن الله في الماضي نستطيع أن نستشرف فعلها وأثرها في المستقبل، ومن هنا فإن دعوة القرآن الكريم للسير في الأرض ... تتضمن وتترتب عليها الدعوة للتفكير في المستقبل أيضاً انطلاقاً من سنن الله الفاعلة في الماضي والحاضر، وذلك ما يتوافق تماماً مع ماهو متعارف عليه لدى مفكري المستقبل وعلومه في عصرنا الحاضر من أن إدراك فلسفة التارخ؛ أي القوانين المؤثرة في ماضي البشرية هو المنطلق والبداية لاستشراف توجهات المستقبل."[1]

ويضيف محمد جابر الأنصاري وهو يحلل فاتحة سورة الروم قائلاً: "فكما أن

---

(١) الأنصاري، محمد جابر. **رؤية قرآنية للمتغيرات الدولية وشواغل الفكر بين الإسلام والعصر**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات ودار الشروق، ط٢، ١٩٩٩م، ص٢٣-٢٤.

المتغيرات العالمية في تلك اللحظة التاريخية من بداية الدعوة توحي بانهزام قوة مؤمنة وتزيد من معاناة المسلمين الأوائل في مواقعهم المحاصرة أمام المشركين الشامتين وتؤثر في معنوياتهم، فإن المتغيرات العالمية الحالية بما جلبته من تقلبات ومؤشرات مقلقة توحي بأن العرب والمسلمين هم ضحية هذه المتغيرات وأنهم أصبحوا محاصرين وأصبح الإعلام العالمي يرشحهم ليكونوا العدو المرتقب للجميع بلا حليف أو نصير. فهل ذلك هو واقع الأمر فعلاً... أم مجرد ظاهر الأحداث... كما حدث في التجربة والمعاناة الأولى للإسلام... ثم جاء وعد الله بالنصر لمن ينصره، وانقلب الحال من تمني المسلمين لانتصار إحدى القوتين إلى انتصار المسلمين أنفسهم على القوتين العظمتين معاً وعلى القوى الأخرى وقيام القوة الإسلامية باعتبارها القوة الكبرى في قلب العالم."[1]

ولا شك أن أهم ما يكشف حجب المستقبل هو معرفة سنن الله في مجريات الأحداث كما دلت عليها نصوص القرآن والسنة، فالفقه السنني القرآني هو المدخل الأساس لاستشراف المستقبل من خلال ما يوفره من معطيات تاريخية، ومنهجية معرفية لقراءة هذه المعطيات، وما يمنحه للمسلم من خلاصات ومنظومات سننية لحركة التاريخ والاجتماع البشري، فالقرآن الكريم لم يقتصر "على ذكر أخبار الماضي فحسب؛ بل أعطى بعداً مستقبلياً للتاريخ، عبر غيب المستقبل القريب والبعيد، في خلال نبوءاته التاريخية التي أفاضها الله تعالى على نبيه الكريم في آيات كتابه العزيز، التي فتحت آفاقاً مستقبلية كبيرة أمام المسلمين... هذه التنبؤات القرآنية وسعت من الرؤية التاريخية للمستقبل لدى المسلمين، ودفعتهم إلى التفكير والعمل الجاد في سبيل صنع التاريخ، ليرسموا للعالم حياة أفضل مفعمة بالخير والعطاء، خلال الرؤية المحيطة بمجريات الزمان كله ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وقد عمق القرآن الكريم هذا البعد المستقبلي للتاريخ أكثر فأكثر، خلال طرحه فكرة "المصير" للإنسان والبشرية، النبي تبلورت عبر

(١) المرجع السابق، ص٢٥-٢٦.

مسألة الإيمان بالآخرة، والحساب والجزاء في يوم القيامة."[1]

ولا شك أن النظر المتبصر في حركة التاريخ وطبائع العمران البشري وتجارب الحضارات والأمم يكسب المسلم قدرة على استقراء الأحداث وقراءتها قراءة تحليلية تركيبية تعليلية استنتاجية، كاشفة عن السنن التي تحكم الفعل التاريخي الحضاري في قيام الأمم وسقوطها، وهو ما يوفر للمسلم الرسالي إمكانات هائلة للتمكن من استباق الأحداث، وتحديد طبيعة المصير الذي سينتهي إليه الواقع المعاش. ولا يتحقق هذا الاستثمار الإيجابي والفعال للتجارب الحضارية إلا إذا تخلص العقل المسلم من عقلية تحول التاريخ إلى قراءة ساكنة جامدة لا تستنهض الهمم والعزائم بقدر ما تتخذ ذريعة لتبرير الأخطاء والهزائم، ولذلك "فرق الكتاب العزيز بين جانبين في البحث؛ بين كينونة الوقائع والأحداث بوصفها مادة قصصية سردية، وصيرورة الوقائع والأحداث المحكومة بسنن وقوانين عامة، فانتقل بالعقل الإنساني من مرحلة قراءة الماضي إلى مرحلة استنباط الدروس وفقه القوانين؛ لبناء الحاضر ورؤية المستقبل. فتحول التاريخ في منظور القرآن الكريم من سكونية ترفية إلى حركية رسالية."[2]

إن فكرة المستقبل في القرآن وما أشار إليه من وقائع وما ذكره من تنبؤات مثل: هزيمة الفرس أمام الرومان، وانتصار الصحابة يوم بدر، والدخول إلى المسجد الحرام وفتح مكة، وإظهار الإسلام على الدين كله، يعد انقلاباً فكرياً ومنهجياً في تاريخ العقل البشري، وطفرة حضارية تدفع بالمسلم إلى التحكم في صناعة التاريخ ورسم خريطة المستقبل، وتسخير طاقاته وإمكاناته في الانفلات من ماضوية ضيقة عاجزة سلبية، ولحظية آسرة مكبلة بما تراه بنظرها القاصر من طغيان الباطل، مع توجيه النظر وتصويبه في ما ورائيات أحداث الماضي وتفاعلات الحاضر وآفاق المستقبل. "ولكن التصويب نحو المستقبل لا يعني الانسحاب من الحاضر كما تفعل المذاهب الرومانسية

(١) الكفيشي، **حركة التاريخ في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص١٠٧-١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٢.

الهروبية الحديثة، أو تحطيمه، كما تفعل الحركات العبثية والشيوعية المتطرفة. فالإسلام ليس (يوتوبيا) يذهله المستقبل المأمول عن الواقع الظرفي، ولا هو (إيديولوجيا رجعية) يذهلها الحنين إلى ماض ذهبي تود استرجاعه، وإنما هو منهج توحيدي يقبض على الواقع وينظر إلى المثال، ويقف في الحاضر ويستشرف الماضي والمستقبل معا، ويخوض في شبكة العلاقات الاجتماعية - السياسية ويرجو الله ويخافه."[1]

فالتأمل في المستقبل -حسب الرؤية القرآنية التوحيدية- ليس انسحابية أو عبثية أو انسلاخاً عن الواقع، وهو أيضاً أبعد من أن يكون مجرد أمان وأحلام يلجأ إليها الإنسان لممارسة نوع من الغيبوبة النفسية المريحة، وإنما هو في حقيقة الأمر مصدر للدافعية والإيجابية التي تمسك بزمام الواقع فهماً واستيعاباً لظواهره وملابساته وبنية علاقاته، وفي الوقت نفسه تملك بعد نظر في بناء صورة عن المستقبل تسعى للإفلات من قبضة الواقع والتحليق بطموح المثال، مع التحرر من القيم السلبية المشدودة إلى الظرفية والانتظارية، وهو أيضاً قوة باعثة على التجدد والإبداع.

٢- سنن العمران البشري ودلالات ختم النبوة:

معنى الختم بموجب لغة العرب وأساليب كلامهم: الطبع، والإتمام، والسد، والوصول إلى الانتهاء. يقال ختم الشيء وختم عليه: إذا بلغ آخره. ويذكر الختم الرسالي بالابتداء الأولي للرسالات التي توالت عبر الأزمنة والأمكنة، ولعل تواليها التاريخي وتتابعها بتقدير من الله تعالى أورث البشرية الحاجة المستمرة إليه فكان ختم النبوة حدثاً غير عادي في التاريخ الإنساني، وانقلاباً في مفاهيم عديدة؛ فصار الحديث عن مفهوم الناس والعالمين بدل الحديث عن القوم، والحديث عن الأمة الواحدة الجامعة القطب بدل الحديث عن الأمم، والحديث عن مفهوم الشهادة والوسط والخيرية بدل الحديث عن الشعب المختار، وتوقف بعث الرسل ليظهر الإنسان

---

(١) التيجاني، حامد عبد القادر. **أصول الفكر السياسي في القرآن المكي**، هرندن وعمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار البشير للنشر والتوزيع، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ص١٧٦-١٧٧.

الرسالي الذي وضعت أمامه آفاق المعرفة القرآنية والكونية بكل مكنوناتها وأسرارها مفتوحة أمامه للنظر والتأمل بمنهجية جديدة مفارقة لمنهجية الرسالات السابقة تلغي كل وساطة بين الإنسان والله إلا وساطة الوحي والتدخل الإلهي عبر سننية علمية موضوعية شمولية تتجاوز البعد المادي الحسي للآيات والمعجزات المادية -مع وقوع بعضها في الرسالة الخاتمة- التي شكلت محور الرسالات عبر التاريخ.

إن الله تعالى لما خلق الخلق أرسل رسله مبشرين ومنذرين يبلغون عنه ما أوحاه إليهم من الكتاب والتنزيل؛ هدى للناس وبياناً لما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وتوالت الرسالات إلى أن شاءت إرادة الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون ختم النبوات لما بلغ الأمر مبلغاً قدره الله تقديراً. فجاءت رسالة خاتم النبيئين محمداً ﷺ على قدر غيبي إلهي ختمت بها الرسالات، وكان القرآن الكتاب الذي ختمت به الكتب، وكان الإسلام الدين الذي ارتضاه الله تعالى للمؤمنين، فأظهره الله على الدين كله. وقد حوت هذه الرسالة الخاتمة طبيعة خاصة، وشرعة ومنهاجاً متميزين وهو ما يدعو إلى تأمل دلالات ختم النبوة في ضوء منظومة السنن التي قام عليها الدين الكامل وأرشد إليها القرآن المجيد خاتم الكتب السماوية.

إن العمق التاريخي الإنساني لختم النبوة في علاقته بالمسألة السننية لا يتم إدراك أبعاده ومقتضياته إلا من خلال الانفتاح على الأسئلة الآتية: لماذا ختمت النبوة؟ ألم يكن الإنسان بعد نبوة محمد ﷺ في حاجة إلى نبي كما احتاج الأقوام إلى نبي بعد انقضاء نبوات سابقة؟ وما دلالة أن يكون محمد ﷺ خاتم النبيئين وعاقبهم؟ هل شرعة ومنهاج النبوة الخاتمة يختلفان عن شرعات ومنهاجيات النبوات الماضية؟ ولماذا كان القرن السادس الميلادي قرن الختم الرسالي؟

تشكل هذه الأسئلة مدخلاً منهجياً ومعرفياً لتفهم دلالات ختم النبوة اعتماداً على المقاربة الكلية السننية التي تستحضر طبيعة السياق التاريخي للنبوة الخاتمة، ومستوى التطور الذي بلغه الإدراك البشري المحايث للطبيعة والحس، والمفارق لهما في

آن واحد، كما تستحضر منهاجية الوحي القرآني وافتراقها عن منهاجية الوحي في النبوات والرسالات السابقة. ولما كانت الرسالة الخاتمة تقوم في ذاتها على منظومة مفهومية متكاملة أرساها الوحي عبر توالي نزوله خلال ما يقارب ربع قرن، عدت بحق هذه المنظومة دليلاً على تحول في تاريخ الرسالات، وعنواناً على خصوصية هذه الرسالة والآفاق التي ستفتحها أمام السعي الإنساني: تدبراً وعملاً وتعميراً وتسخيراً ووراثة صالحة وشهادة على العالمين.

وقد تشكلت هذه المنظومة من المفاهيم الكلية الآتية: التوحيد والاستخلاف والتزكية والعمران والشهادة والخيرية والعالمية. إنها منظومة تتميز بالتداخل والتكامل، بعضها يدل على الآخر، ونفي واحد من هذه المفاهيم وإقصاؤه أو عزله، وفصله عن بقية المفاهيم هو مخالفة لمنهاجية الوحي وعدم إدراك حقيقة أن تختم الرسالات بالإعلان عن هذه الكليات الأساسية، وهو ما ورث الأمة قروناً من التخلف نتيجة الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض. فالتوحيد ليس مجرد كلمة وإلا سهل على الملأ من قريش أن يجروها على ألسنتهم ويعلنوها في نواديهم. إن التوحيد -بما هو إيمان بالله- رؤية للوجود والكون والعالم، تعبر عن الاستجابة لأمر الله والتسليم له في كل شيء. "في التوحيد يغدو الكون والعالم والطبيعة من صنع الله القادر المهيمن المبدئ المعيد، ويتحرر العالم المسلم من سائر الخرافات والصنميات التي تلبستها الطبيعة والعلم في المذاهب والأديان الأخرى، فعرقلت انطلاقه الحر للكشف عن السنن والطاقات والنواميس... إن التوحيد يضع العالم المسلم حراً في مواجهة الكتلة الكونية، فاعلاً مريداً... يضعه فوق هذه الكتلة سيداً على الخلائق، ومن ثم يصير التوحيد فرصة كبرى للتحقق بالمعرفة، للاستزادة منها، من أجل الإمساك بتلابيب العالم والطبيعة والحياة.. والتقرب أكثر إلى الله."[1]

إن هذه المنظومة المفاهيمية التي صاغتها منهاجية الوحي هي التي ستشكل

(١) خليل، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٦٩.

القاعدة الأساس للفقه السنني القرآني وتطبيقاته النبوية، لتكون النبوة الخاتمة هي المؤهلة لقيادة الإنسان نحو إدراك حقيقة الوجود الغيبي والعيني، وتعينه على فهم واستيعاب حركة التاريخ، وتقدم له الدين الكامل فتنعدم الحاجة إلى رسالة أخرى من السماء. ولذلك ذهب الفيلسوف المسلم محمد إقبال إلى القول بأن "النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مِقود يقاد منه، وأن الإنسان؛ لكي يحصل كمال معرفته لنفسه، ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو. إن إبطال الإسلام للرهبنة، ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام، وإصراره على أن النظر في الكون، والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة."[1]

لقد كان الفقه السنني القرآني يحمل في ذاته دلالة عميقة تشي بختم الوحي المنزل من السماء وإعلان انتهاء عصر الرسالات، وذلك لما صار الإنسان يمتلك بوراثته للفقه القرآني السنني القدرة على بناء العمران، والسير في الأرض، واستنطاق عوالم الكون وأسرار الطبيعة، وحماية إنجازاته الحضارية بإعمال منهاجية الوحي وتحكيم منظومته المفهومية العاصمة للإنسان من الضلال والضنك وسوء العاقبة.

لقد حصل تطور تاريخي في النظر إلى الإنسان وهو يتأهل عبر خبرات وتجارب متعددة لإنجاح مهمة الاستخلاف. فقد كان نظر الإنسان حسيراً، وتوظيفه لقدراته

---

(١) إقبال، محمد. **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٦٨م، ص١٤٤.

وكلام إقبال يحتاج إلى بيان من حيث إنه قد يرد إلى الذهن وهم الاستغناء بالعقل عن أنوار الوحي وإلغاء المنهج النبوي، وهو حتماً ليس مقصود إقبال، ولكن إطلاقه الكلام بهذا الشكل هو الذي دفع البعض إلى تبني موقف التخلي عن الوحي بحجة بلوغ العقل البشري إلى مرحلة الرشد اعتماداً على أطروحة إقبال، ونشير هنا إلى محاولات عبد المجيد الشرفي وتلاميذه التي تفتقر إلى كثير من الدقة المنهجية والموضوعية العلمية، بغض النظر عن مقاصد هؤلاء وأغراضهم.

محدوداً، وكان تعاقب الرسالات من السماء، لتمكين الإنسان أولاً من تجديد علاقته بربه، وتجاوز خرافات الآباء، وثانياً إعداده للتحرر من أية وساطة بينه وبين الله تعالى وصولاً إلى ختم النبوة بعد أن يكون الإنسان قد أدرك قيمته الوجودية في حركة التاريخ وإحكام قواعد الميثاق والعهد والاستخلاف. وبعيداً عن أي تأويل فاسد أو تفسير مغرض خال من الموضوعية والمنهج العلمي، فإن "انقطاع الوحي وختم الرسالات ومباشرة الإنسان للاستخلاف من غير رسل ليس مصادرة على التاريخ وسنة الله فيه، فليس ختم النبوة إعلاناً عن عدم حاجة الإنسان إلى الإرشاد الإلهي، إنما هو تحول في علاقة الإنسان بالغيب، وتكليف جديد كلف به الإنسان، وهو اكتشاف شرع الله وأمره عبر منهجية جديدة، وهي الاجتهاد في فهم الكتاب الخاتم والنص المهيمن الذي اختزل الكتب واستحوذ على جوهرها وهيمن عليها، لذلك كان تعليم الناس الكتاب والحكمة من وظائف الرسول الخاتم"[1] وتعليم الكتاب والحكمة واحدة من وظائف الرسول ﷺ كما أخبر بذلك الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢]. ففي هذا التوصيف الرباني لوظائف النبي ﷺ بيان لطبيعة رسالته وخصوصية بعثته، وإعلان عن منهاجية جديدة في البلاغ النبوي، وهي منهاجية دالة على الختم الإلهي لإرسال الرسل، وعلى أن تمثل إفادات هذه الوظائف الثلاث تمكين الإنسان من تحقيق مراد الله تعالى فيه، وجديرة بأن تقدم له شرعة سننية متكاملة يشيد بها العمران ويحقق روح الاستخلاف وحقيقة التوحيد. وإذا كانت تلاوة الآيات فعلاً أسنده القرآن إلى النبي، يصدر عنه إلى الناس لإخراجهم من الضلال، فإن إراءة الآيات فعل إلهي اختص به الله تعالى حتى يتحقق للناس تبين الحق ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣]، فالنبي ﷺ يتلو الآيات على العبد، والله تعالى يري العبد

(١) حللي، عبد الرحمن. "منهجية الرسالات ودلالات ختم النبوة"، **مجلة إسلامية المعرفة**، عدد (٤٠)، السنة (١٠)، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص٧٤.

الآيات. وتلاوة الآيات تخرج الإنسان عن داعية هواه وتصرفه عن الإخلاد إلى الأرض والوقوع في الضلال والمعيشة الضنك، ومنهج إراءة الآيات منهج لتبين الحق وشهود حقيقته في الآفاق وفي الأنفس، في الكون المادي وفي الكون النفسي، وفي الكون الاجتماعي (العمران البشري).

لقد عبر القرآن المجيد والنبوة الخاتمة عن نهاية أطوار من تارخ البشرية في علاقتها بالسماء وافتتاح الطور الأخير[1] في عالم الرسالات السماوية. فقد كانت طبيعة -القرآن- المعجزة الخاتمة مغايرة لمعجزات الأنبياء من قبل "فهي ليست معجزة مادية تقسر الناس قسراً، وتأخذ العقول كرها إلى الاستجابة لدعوته والإيمان برسالته... ولا شيئاً يقلب أوضاع الحقائق المادية، ويغلل العقول بسلاسل العجز القاهر عن الوقوف أمامها مفكراً... فمعجزة محمد ﷺ التي وقع بها التحدي كانت منذ أول لحظات وجودها معجزة علمية، تخاطب العقل وتتحداه، وتنادي القلب والوجدان... ومعنى ذلك أن معجزته خالدة بخلود رسالته، يتجدد إعجازها بتجدد الحياة في تفكيرها ومعارفها"[2] فتعالي القرآن المجيد عن المحسوس، ومفارقته له مع دعوته للنظر الحسي والتجريبي المصحوب بالنظر العقلي التأملي، وتصديقه لما سلف من الكتب والرسالات السماوية وهيمنته عليها، ودعوته إلى السير والنظر بهدف الاعتبار السنني والتحكم في حركة التاريخ والعمران، وهداياته اللامتناهية وبصائره المتوالية في تقويم حياة الإنسان العلمية والعملية، والاجتباء الشهودي لأمة الوسط ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۝٧٨﴾ [الحج: ٧٦] عبر التبليغ، وإقامة العدل، وإحسان العلم والمعرفة، فكل ذلك مما علمناه فذكرناه، وما لا نحيط به علماً أوسع وأكثر، أكبر

(١) الطور الأخير هو طور العالمية المتجاوز لأطوار القبليات والقوميات والعصبيات المحكومة بالأهواء والماديات ورفض الآخر وإقصائه بناء على عقيدة شعب الله المختار، وقد حدده الله تعالى بأنه رحمة للعالمين بما تدل عليه منظومة الرحمة من قيم الإنسانية والتسامح والاعتراف بالآخر والعدل والسلام.

(٢) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج١، ص٥٨٦-٥٨٧.

الأدلة وأفصح البينات على خصوصية الشرعة والمنهاج القرآنيين وعدم حاجة الإنسان بعدهما إلى شرعة ومنهاج آخرين، وأنه هو البديل عن كل الكتب السماوية، وأن صاحب الرسالة الذي أوحي إليه القرآن هو البديل[1] عن كل الرسل، فهو ﷺ "العاقب الذي ليس بعده نبي."[2] وتمتاز الرسالة الخاتمة بخصيصة الهيمنة، إضافة لما تحقق لها من رصيد التجارب التاريخية للأنبياء مع أقوامهم، وما انتهى إليها من أصول الرسالات السماوية، التي صدقتها وقومت مسيرتها، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]، "والهيمنة تعني -فيما تعني- الرقابة والمراجعة والتقويم، وبيان مواطن الخلل، وتبيان علل التدين التي لحقت بالأمم السابقة، وهذا يشكل للمسلم رصيداً عظيماً، وعمقاً حضارياً، وبعداً تاريخياً، ويمنح قدرة على توظيف هذا التاريخ المديد في بناء الحاضر ورؤية المستقبل، والإفادة من

---

(١) دلالة البديل هنا بمعنى التصديق والهيمنة.

(٢) رواه البخاري وفيه "وأنا العاقب،" لكن زاد يونس بن يزيد في روايته عن الزهري "الذي ليس بعده نبي،" وثبت في البخاري وغيره قول النبي ﷺ لعلي يوم الخروج في غزوة تبوك آخر غزواته: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي." وذلك أمام حشد من الصحابة، حيث خرج معه أكثر من ثلاثين ألفاً من الصحابة، وخلف علياً بالمدينة، وذلك ليركز هذا المعنى العظيم في نفوسهم ويقطع دابر أهل الادعاء والضلال. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، ج٣، ص١٢٩٩، حديث رقم: (٣٣٣٩)، وفي كتاب: المغازي، باب: غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، ج٤، ص١٦٠٢، حديث رقم: (٤١٥٤)، وفي كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب علي بن أبي طالب، ج٣، ص١٣٥٩، حديث رقم: (٣٥٠٣).

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٦، ص٥٥٦.

- ابن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق**، مرجع سابق، ج٤، ص١٣٥.

التجربة الإنسانية جميعاً، فالخاتمية تعني انتهاء تاريخ النبوة إلى الإسلام، الرسالة الخاتمة، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، كما تعني الخاتمية للنص الإلهي القرآني، من وجه آخر، الخلود وعدم الانتهاء، وإنما امتداد العطاء والإنتاج حتى يرث الله الأرض ومن عليها."[1]

لقد امتلك الإنسان بهداية من الرسالة الخاتمة المفتاح الذي يحرره من الإصر والأغلال؛ إصر الطبيعة والمادة، وأغلال حضارات العصبية والآبائية والقهر، وصار مؤهلاً لإكمال مسيرة الخلافة دون حاجة إلى كتاب آخر بعد القرآن، ودون داع إلى رسول جديد بعد محمد ﷺ بعد أن مكنه هذا القرآن وتطبيقاته النبوية من المنظومة السننية المتكاملة لخوض معركة العمران. ولذلك أشار الشيخ الصادق عرجون إلى أن "القرآن الكريم قد أبان عن نفسه في حجيته لنفسه وفي حجيته للنبوة الخاتمة فقال رداً على الذين تعنتوا رسول الله ﷺ بطلب للآيات المادية من مثل معجزات الأنبياء السابقين كناقة صالح، وعصا موسى، وطير عيسى، ليفهمهم أنه ليس من شرط صحة النبوة في ذاتها إنزال المعجزات على من ادعاها، ولا من شرطها إذا أنزلها الله رحمة بعباده أن تتساوى في نوعها، وإنما المعجزات شرط في إلزام التصديق بالنبوة، والله تعالى إذا شاء أنزلها، وإذا أنزلها جاءت على مقتضى سنة الله في الرسالات إلى الأمم، فكل آية تنزل على حسب استعداد الأمة المرسل إليها وحالها، وقد كانت الأمم السابقة تحمل عقولاً مادية لا تؤمن إلا بخرق قوانين المادة، فجاءت معجزات رسلها مناسبة لحالها واستعدادها. أما محمد النبي الأمي خاتم الأنبياء فحسبه أن الله أنزل عليه كتاباً هاديا، هو آية نبوته ومعجزة رسالته؛ لأن الله بعثه وقد بلغ العقل الإنساني رشده وتحرر من أغلال التقليد وأسر الغرائز المادية، وأتيح له الانطلاق في آفاق الكون، يفكر

---

(١) الزنكي، صالح قادر. **البعد المصدري لفقه النصوص**، سلسلة كتاب الأمة (١١٣)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، السنة (٢٦)، ١٤٢٧هـ، ص٥-٦، من تقديم عمر عبيد حسنة.

ويستنبط، ويعلم ويستخرج ويستكشف."[1]

إن طبيعة الوحي ومنهجيته ذاتها دليل على الختم، وهو ما لم تبلغه مدارك الجاهليين فهوت بهم إلى التعلق بإسقاط الرؤية المادية الحسية فطلبوا آيات محسوسة[2] فكان رد القرآن ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٣] ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان: ٩]. إن تعالي القرآن عن المحسوس في تحقيق عملية البلاغ المبين لا يعني عدم صدور معجزات حسية عن النبي ﷺ كما صار إلى القول بذلك ممن لم يقيموا وزناً للروايات الصحيحة سنداً ومتناً التي بلغت مبلغ التواتر المعنوي القاطع، معتبرينها بزعمهم مخالفة لروح القرآن ومناقضة لإنسانية محمد ﷺ وطبيعة رسالته التي لم تكن منسجمة مع القول بإتيانه بالخوارق. وهذا زعم وتضليل، يبدو أن ظاهره الحق، لكن أريد به إشاعة الباطل، "والحق أن نبينا محمداً ﷺ كان في غنية بالقرآن الكريم -وهو معجزته الخالدة الغامرة

---

(١) عرجون، **القرآن العظيم هدايته وإعجازه**، مرجع سابق، ص١٤٥.

(٢) من شواهد ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل باب التوبة والرحمة. فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩]، رواه أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، وقال: "صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه."

لكن كثيراً من الآيات والمعجزات الحسية التي وقعت منه ﷺ لا سبيل إلا إنكارها -وقد ثبتت بنصوص صحيحة- بدعوى أن المعجزة الحسية لم تكن من طبيعة الرسالة الخاتمة، وأن معجزتها هي القرآن حيث إعجاز الهداية القرآنية الشاملة للكون والحياة والإنسان. ولئن صح القول بأن هذه هي طبيعة الإعجاز القرآني فلا يصح رد أحاديث وروايات صحيحة بمحض العقل الفاسد؛ إذ النظر العقلي الصحيح يفيد وقوعها، لكنها لم تأت على سبيل إقناع الآخر بأحقية الرسالة الخاتمة، وإرغامه على ذلك، وإنما جاءت تثبيتاً للمؤمنين، أو درءاً لمفاسد، أو تجاوزاً لصعاب وشدائد، وتبكيتاً للمشركين، والله أعلم.

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٤، ص٦٠، حديث رقم: (٢١٦٦).

- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٦٢.

القاهرة- عن التحدي بهذه الآيات الباهرات والأعاجيب المعجزات مع ثبوتها في جملتها ثبوتاً لا يشك فيه أهل الإيمان؛ لأنه لم يثبت بطريق قاطع أنه تحدىٰ بحادث من هذه الحوادث العظيمة، فهي آيات تشريف له ﷺ وتنويه بذكره، وآيات تكريم لذوي الصدق من أمته، وآيات تثبيت لبعض المؤمنين، وآيات ترغيب وتأليف لبعض من في قلوبهم استعداد لقبول الهداية، ولكن عقولهم قد تقصر عن التعمق في فهم دلائل العقل ومرائي القرآن."[1]

ولم يفهم مشركو قريش طبيعة النبوة الخاتمة، ولم يدركوا دلالات اختتام الرسالات واكتمال الدين ومن تم ظهوره وإظهاره. فالدين صار كاملاً أو مكتملاً ولم يعد في حاجة إلىٰ بعثة نبوية جديدة. ومعنىٰ الإكمال والاكتمال دخول البشرية طوراً جديداً من أطوار تاريخها وتعميرها للأرض؛ هو طور النضج والرشد التكويني العقلي الاستدلالي الذي افتتحه الله تعالىٰ بقوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾. وقد وردت في القرآن مفردات ومصطلحات دالة علىٰ هذا التحول التاريخي الذي بلغته بنية العقل الإنساني مثل: قرطاس وكتاب وأقلام وتملىٰ وتتلىٰ والحكمة والعلم وتعلمون وتعقلون وتتفكرون...

إن لختم النبوة عمقاً تاريخياً عالمياً يتخذ أبعاداً منهجية ومعرفية تدعو إلىٰ النظر إليه من زاوية الإحكام السنني العمراني الذي سيرثه أتباع النبوة الخاتمة، ليشيدوا به حضارة إنسانية عالمية راشدة في أقل من نصف قرن، ذلك أن "المنهج العلمي السنني لا شك يحتم أن يتم إثبات صدق الرسالة الخاتمة بأسلوب عقلي علمي سنني يلزم الأجيال علىٰ تعاقبها بصدقها؛ بحيث تترك لدىٰ المتأخر منهم يقيناً لا يختلف في جوهره عن يقين من عاصر الرسالة وصاحب الرسول ﷺ، ولذلك كان لا بد لإعجاز الرسول ﷺ أن يتم علىٰ أساس من قواعد العقل والفطرة والسنن التي جاءت رسالته باحترامها وطلب الالتزام بها، ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ فتأييد رسالة الرسول ﷺ علىٰ الحقيقة ما كان له في جوهره أن يتم بحادثة أو حوادث خارقة، متفرقة، تتجاوز العقل

(١) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج١، ص١١٧.

والفطرة والحس، ولا تلزم الباحث بالنواميس والسنن."[1]

وقد كان لمثل قوله ﷺ: "مثلي في النبيين، كمثل رجل بنى داراً، فأحسنها وأكملها وأجملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة،"[2] ومثل قوله ﷺ: "مثلي ومثل الأنبياء، كمثل قصر أحسن بنيانه، وترك منه موضع لبنة، فطاف به نظّار فتعجبوا من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيبون غيرها، فكنت أنا موضع تلك اللبنة، ختم بي الرسل"[3] دلالة قوية على اكتمال بنيان الرسالات وتمام مهمة النبوات بالرسالة الخاتمة، قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومنها استجماعها لمهمات

---

(١) الزعبي، أنور. **ظاهرية ابن حزم الأندلسي: نظرية المعرفة ومناهج البحث**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م)، ص١١، من تصدير عبد الحميد أبو سليمان.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحها. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيين ﷺ، حديث رقم٣٥٣٤و٣٥٣٥،
- مسلم. **صحيح مسلم**، كتاب: الفضائل، باب: خاتم النبيين، حديث رقم٢٢٨٦.

قال أبو حامد الغزالي: "اعلم أن مقصود فطرة الآدميين إدراكهم سعادة القرب من الحضرة الإلهية، ولم يكن ذلك إلا بتعريف الأنبياء، وكانت النبوة مقصودة بالإيجاد، والمقصود كمالها وغايتها لا أولها، وإنما تكمل بحسب سنة الله بالتدريج، كما تكمل عمارة الدار بالتدريج، لتمهد أصل النبوة بآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم يزل ينمو ويكمل حتى بلغ الكمال بمحمد ﷺ. وكان المقصود كمال النبوة وغايتها، وتمهيد أوائلها وسيلة إليها." انظر:

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **مجموعة رسائل الإمام الغزالي**، رسالة: الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية، بيروت: دار الكتب العلمية، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٨٠.

(٣) رواه مسلم في صحيحه مع اختلاف في اللفظ، وكذلك ابن حبان في صحيحه، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. انظر:

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الفضائل، باب: خاتم النبيين، ج٤، ص١٧٩٠، حديث رقم: (٢٢٨٦).
- البستي، **صحيح ابن حبان «بترتيب ابن بلبان»**، مرجع سابق، ج١٤، ص٣١٦، حديث رقم: (٦٤٠٦).

المصالح وتتماتها، ولعل الشرائع قبلها إنما انبنت على المهمات. وهذه جمعت المهمات والتتمات، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، و"مثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا" إلى قوله"فكنت أنا تلك اللبنة"يريد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ أن الله عَزَّوَجَلَّ أجرى على يده وصف الكمال ونكتة التمام."[1] وقد علق محمد الصادق عرجون رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا الحديث بأسلوبه الأدبي الأخاذ، وبنظرته الفلسفية العميقة فقال: "فهذا الحديث الشريف يضع النبوة في أفقها الواقعي من آفاق الحياة، ويضع حملة لوائها من المصطفين لتلقي كلمات الله في ذروة بناء الحضارة الإنسانية التي تزاوج بين المادة والروح، مزاوجة يكتمل فيها أثر كل منهما بأثر الآخر... فالحضارة الإنسانية، أو الحياة الإنسانية المهذبة -في معنى هذا الحديث- بناء وضع كل نبي من الأنبياء وكل رسول من الرسل لبنة في صرحه حتى استقام مشمخراً سامقاً في أجواز الحياة، مزيناً مجملاً إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه لم توضع، وبقي مكانها فارغاً، ينقص من إعجاب الناس بالبناء وهم يطوفون به في "أطوار الحياة" ودورات الفلك، ويتمنون لو أن هذه اللبنة جاءت بحقيقتها وصورتها، لتوضع في موضعها ليتكامل حسن البناء ويتم الإعجاب به، وجاءت اللبنة بحقيقتها الجامعة لكل ما في لبنات البناء من طبيعة ذراتها، فكانت درة البناء الفريدة، وهي محمداً ﷺ في رسالته الخالدة الخاتمة."[2]

إن لهذا الحديث كثافة رمزية عالية تحفل بجماليات ختم بنيان الرسالات وتمامه بنبوة محمد ﷺ. إن الرسالات والنبوات السابقة هي بمثابة بناء تواصلت لبناته تترى، وكان لا بد لهذا البناء أن يكتمل حتى يظهر دين الحق على الدين كله. إن الإنسان لم يعد في حاجة إلى خوارق حسية مادية للاستجابة لنداء الرسالة وتعاليم الوحي، كما جرى عليه الحال مع الأنبياء السابقين والأمم الماضين، كلما طال الأمد على قوم بعث الله فيهم رسولاً حتى إذا ما كذبوه وعصوا أمر ربهم جاءت آيات الله وعداً غير

(١) الزركشي، **البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٥، ص١٢٣.

(٢) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج١، ص٢٣١-٢٣٢.

مكذوب، بل ترقى إلى منهجية سننية تؤهله لخوض مرحلة بناء العمران اعتماد على إعمال قواعد العقل الاستدلالي ومناهج النظر التجريبي والاستقراء التاريخي مع تحكيم الوحي في هذا كله.

ثالثاً: المنظومات السننية الحاكمة لصيرورة العمران البشري حسب الرؤية القرآنية

الناظر في القرآن الكريم وهو يؤسس وعياً جديداً بالسنن يجد أنه لا يعرض السنن عرضاً مفصولاً عن أحداث ووقائع وملابسات عامة، كما يستطيع أن يدرك من خلال تجميعه للنصوص القرآنية، والنظر في وحدتها البنائية والسياقية، أن القرآن المجيد يقدم الرؤية المتكاملة لمجمل المنظومات[1] السننية الحاكمة لصيرورة العمران البشري هدفها بناء الإنسان السنني المسؤول عن الفعل الحضاري، وتحقيق أعلى درجات الفعالية في إقامة وحماية العمران البشري: معرفة واستثماراً وإنجازاً ومتابعة وتقويماً واستشرافاً، وذلك في خط التكاملية بين حركة الفرد والمجتمع والدولة والأمة والحضارة، وفي انسجام مع الوحي والفطرة والعقل والكون، ولعل النظر في هذه المنظومات السننية وفق الرؤية القرآنية من حيث هي "الرؤية الإسلامية الكونية... رؤية توحيدية غائية أخلاقية إعمارية خيرية حضارية تعبر عن الفطرة الإنسانية السوية، وهي بذلك، وبالضرورة، رؤية علمية سننية تسخيرية... تزود الإنسان بالدافعية والطاقة الوجدانية اللازمة لبناء الحياة والحضارة وإعمار الأرض."[2] يكشف عن ذلك المستوى التركيبي السنني التكاملي الذي يحكم صيرورات البناء العمراني القائم على ضرورة الاستثمار المنهجي لكل مكونات المنظومة السننية وعناصرها.

---

(١) نستعمل هنا مصطلح "المنظومة" للتعبير عن الرؤية المعرفية والمنهجية الكلية للقرآن الكريم حول مسألة السنن، فالمنظومة تحمل معاني النسقية والتكاملية والتفاعلية والنظام والانتظام والتماسك البنيوي والتوازن الداخلي. ويتعارض اختيار مصطلح المنظومة مع النظر التجزيئي التبعيضي الانتقائي.

(٢) أبو سليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية**، مرجع سابق، ص٥٤-٥٦.

والذي يتأمل القرآن وهو يبسط مسألة السُّنن الإلهية في سياقاته المتعددة، والمتكاملة، والمتفاعلة، يجده لا يتحدث عن حزمة سُنن مجزأة ومتنافرة مفصولة عن بعضها البعض؛ يصلح فهمها واستيعابها بنظر جزئي انتقائي تغلب عليه التسطيحية والتبسيطية، بل إننا نلفاه يعرضها منظومة متكاملة ووحدة نسقية كلية يأخذ بعضها ببعض في ترابط وتكامل وتوازن، ولذلك فـ "القرآن يعرض كلاً متناسقاً من السُّنن المتفاعلة والمتداخلة، التي لا يمكن أن تفهم في إطارها الكلي والجزئي، إلا بدراستها المتداخلة والمتكاملة، بوصفها شبكة من المعاني، والعلائق، والروابط، والضوابط، والمقاييس، والمعايير."[1] لتحقق دورتها الإنجازية وفعاليتها التسخيرية الحضارية، وتجنب حركة الاستخلاف من الوقوع في انحرافات تقود إما إلى الاستضعاف بفعل إغفال المنظومة السننية العمرانية، والاتكال على منظومة سنن التأييد التي ستصبح منظومة تؤدي دوراً تنافرياً، حيث فقدت فعاليتها حينما انفصلت عن باقي أجزاء المنظومة السننية الأخرى، وإما تقود إلى الاستكبار بفعل إهمال منظومة سنن الهداية والتأييد واليقين فقط في المنظومة السننية العمرانية مفصولة عن أبعادها الإيمانية والأخلاقية، فيحصل الطغيان ووهم الاستغناء عن الهداية والتأييد الربانيين. ولذلك، فإن وضوح الرؤية القرآنية في موضوع المنظومات السننية يتيح للناظر إدراك أن هذه الرؤية هي رؤية كونية توحيدية خيرية إعمارية إيجابية تحفز الفعل نحو البناء والإبداع، وتحرر العقل من أوهام المادة، وتفتح أمام الخيال الإنساني الراشد إمكانات هائلة، لاكتشاف عوالم النفس والكون والحياة مزوداً بقدرات وفعاليات تسخيرية تنسجم مع فطرته السوية وتلبي إرادته المتوثبة.

ويقترح عبد العزيز برغوث لإنجاح هذه العملية المعرفية والمنهجية ضرورة" تطوير رؤية متكاملة، تُمكّن من النظر إلى دلالات السُّنن، من خلال الدوائر التحليلية الآتية:

- دائرة تحليل دلالة السُّنة في السياق المباشر؛ أي في سياق ورودها المباشر في الآية

(١) برغوث، "ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية"، مرجع سابق، ص٤٤.

التي ذُكرت فيها.

- دائرة تحليل دلالة السُّنة في السياق العام لكل سورة من السور التي وردت فيها اللفظة.
- دائرة تحليل دلالة السُّنة في سياق جملة الصور التي وردت فيها اللفظة.
- دائرة تحليل دلالة السُّنة في السياق الكلي للقرآن الكريم وإطاره التحليلي العام، ومحاولة تشكيل ما يمكن تسميته بشبكة الدلالات، والمفاهيم، والمفردات، والضوابط، والقواعد، والتوجيهات التي يمكن استحلابها من مسألة السُّنن وتطبيقاتها في حياة الفرد والمجتمع.

إن تقديم دراسة تنظر في كل هذه الدوائر، تستطيع أن تجلي المسألة السُّننية في القرآن، وتعين على اكتشاف السُّنن والتعامل معها بشكل علمي. ومن جهة أخرى ينبغي أن تتعزز دراسة السُّنن وكشفها وتسخيرها، بالفعل المعرفي الفكري الاجتهادي الذي يدرس التاريخ، والفعل الحضاري، وحركة الاستخلاف، ويسير في الأرض فينظر كيف تعمل السُّنن؛ وكيف تتفاعل في عمق الفعل التاريخي، وذلك لكي يتمكن الإنسان من اكتشاف العلاقة، والتأثير المتفاعل بين سنن التاريخ، وسنن الكون، وسنن الهداية؛ وكيف يقدم لنا تاريخ الإنسان، وتجربته الاستخلافية الحضارية، الخبرة الفعلية في كيفية عمل السُّنن وتركيبها في الواقع. والقرآن الكريم بمقدار ما يدلنا على بعض السُّنن، يحثنا على تفهمها من خلال السياق القرآني، فهو يحثنا على أن نتوجه إلى الواقع، وإلى التاريخ، لكي نفهم ونكتشف ونسخر ونرتقي، ونبني وعينا وخبراتنا وثقافاتنا السُّننية التي تمثل القدرة والسلطان والقوة."[1] ولعل ما اقترحه عبد العزيز برغوث قد سبقه إليه أخوه الطيب برغوث تنظيراً وتطبيقاً في عددٍ من دراساته ومؤلفاته التي تدندن جميعها حول المنظومة السننية البانية للفعالية الحضارية وفق

(١) المرجع السابق، ص٤٦-٤٧.

الرؤية القرآنية، وهو ما سيأتي بيانه في هنا.

وينتظم حديثنا عن المنظومات السننية الحاكمة لصيرورات العمران البشري مقاصد نجملها فيما يأتي:

أ- تحقيق كفاية استيعابية وافية ومتوازنة بالمنظومة السننية القرآنية وتطبيقاتها النبوية، بهدف تجاوز حالة الوهن الحضاري أو اللحظة التاريخية التي عبر عنها حديث القصعة بما يحمله من رمزية تهز الوجدان هزاً نحو التحقق الكامل بالوعي التاريخي، واستجماع شروط التمكين والشهود. وتفرض هذه الكفاية المتوازنة التنبيه إلى أن التعامل مع هذه المنظومات على أنها منظومات معزولة ومتنافرة هو تعامل تجزيئي يفقد هذه المنظومات أصالتها المرجعية وفعاليتها التأثيرية. لذلك وجب على كل مشاريع الإصلاح أن تنتبه للآثار السلبية المترتبة عن الغفلة عن الاستثمار الشمولي التكاملي لمعطيات المنظومات السننية الأربع، وإدراك أن "الرؤية الحضارية الكونية الإعمارية، القائمة على أساس الخيرية الروحية والموضوعية العلمية السننية، هي الأساس والقاعدة والمنطلق والشرط اللازم لأية أمة، ولأية جماعة إنسانية حضارية،... ذلك أن الرؤية الكونية تمثل الغاية والدافع والمحرك الذي من دونه لا قيمة ولا وزن لأية آليات أو أدوات أو وسائل تستحوذ عليها أية أمة متكلسة مهترئة متخلفة "غنيمة" و"نهيبة" حضارية باردة لا حياة فيها؛ لأن الآليات والأدوات ليست إلا وسائل لتحقيق رؤية وغاية وقصد."[1]

ب- ضرورة تجاوز قصور الوعي بالمنهجية السننية وبمعطيات المنظومة السننية، وتدارك آثار هذا القصور التاريخية وتجلياته العملية وتشكلاته وتفاعلاته الواقعية، من خلال اعتماد الرؤية التوحيدية الاستخلافية القرآنية الموجهة للعقل البشري المسلم، لاستقرائها من حركة التاريخ وظواهر الكون، وتداول العمران مع التأكيد على

(١) أبو سليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية**، مرجع سابق، ص١٨٥-١٨٦.

ربانيتها وأبعادها الغيبية وفاعلية الإرادة الإنسانية "وبهذا يتجنب الإنسان فوضى تسلط القوى الطبيعية عليه، وفوضى تجاوزه هو لقدراته وحدوده، كي لا يضع نفسه في محل لا يقدر على أن يتفاعل فيه من أجل الترقي الاستخلافي الحقيقي المتوازن، الذي تتكامل فيه هدايات الوحي وسلطان العقل المُرشد. وفي ضوء الرؤية التوحيدية القرآنية يكون الاشتغال بالسُّنن من وجهها الأول، مؤدياً إلى معرفة جانب الإرادة والمشيئة والتدبير الإلهي المحكم، وإلى الزيادة في الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من خلال التعرف على الدقة والنظام والتوازن والتناغم في الخلق، وجريان الوقائع والأحداث؛ فيكون بذلك اتصال الإنسان بخالقه أقوى وأعظم، وخاصة عند اشتغاله بالوجه الثاني من السُّنن المتجلية في عالم الظاهرات، وفي أحداث التاريخ. فالرؤية القرآنية للسُنن تنشئ الوعي المتفاعل بين الوجهين معاً، مما يكون دافعاً ومحفزاً على التفاعل التسخيري في واقع الفعل الحضاري."[1]

ت- إن هدف تمكين قيادات الأمة الحاملة لمشاريع الإصلاح والتجديد من المنظومة السننية لا يتحقق إلا من خلال ضبط النسق المعرفي والمنهجي الناظم لمسألة السننية التي يتحقق بها عمران عالمي إنساني مستمد من المرجعية العليا للدين "الوحي" وتطبيقاتها النموذجية "السيرة النبوية" مع استثمار أمثل للتجربة البشرية والخبرة التاريخية للمجتمعات والحضارات في حقل المعرفة السننية، وتدبير هذا الاستثمار، وتوجيهه، والتحكم في معطياته وفق الرؤية السننية القرآنية، وهو ما يجعل هذه القيادات أكثر قدرة على تمثل صفة الفعالية الحضارية وتهييء الشروط اللازمة -الذاتية والموضوعية- والاستجابة بصورة أمثل لتحديات حركة التدافع والابتلاء والشهود والتجديد. ذلك أن الانخراط في مشروع إعادة بناء نهضة الأمة يكون انخراطاً معاقاً محكوماً عليه بالفشل ما لم تحصل لدى نخبه وقياداته من العلماء والمفكرين والمصلحين اقتدار معرفي ومنهجي

(١) برغوث، "ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية"، مرجع سابق، ص٢٠-٢١.

بالسنن من حيث طبيعتها وحركيتها ومنظومتها وتفاعلاتها وتطبيقاتها وما يوفره ذلك الاقتدار من قوة الدفع التاريخية لتحقق المستوى المطلوب من الفعالية الحضارية.

ث- إن هذه الفعالية الحضارية العمرانية الإسلامية التي يسعى الاقتدار المنهجي والمعرفي بالسنن لتحقيقها قد حدد الطيب برغوث منطق اشتغالها، وشروط تحققها ومسالكها الإنجازية في: "الهم التنفيذي أو المنطق العملي، والهدفية المنضبطة، والمشروعية المتوازنة، وفقه التخطيط التكاملي، وفقه التنسيق الفعال، وفقه الإتقان النوعي، وفقه المتابعة الدائمة، وفقه المراجعة والتقويم المستمر، وفقه الاقتصاد في استعمال الإمكانات، وفقه سرعة الإنجاز الوظيفي أو التسخيري، وفقه الحماية للمنجز الاجتماعي"[1] فالفعالية العمرانية المحققة للجعل الإلهي لأمة الوسط القائمة بواجب الشهادة، فعالية محكومة بوعي سنني، ومنضبطة بشروط فكرية وتحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية، تتراكم وتتكامل في نسق تفاعلي، يعزز القدرات الإنجازية في اطرادية متواصلة خاضعة لحركة تخطيطية، وأصالة مرجعية تنطلق من بصائر الوحي وسلامة الفطرة وصحة النظر العقلي.

ج- إذا كانت المنظومة السننية منظومة ذات أبعاد متعددة، فيمكن التمييز بين منظومات سنن التسخير المنتجة للفعالية التسخيرية الراشدة، المتحكمة في الحركة الاستخلافية، ومنظومات سنن الاستخلاف. ويعد التسخير تجلياً من تجليات المظهر الكوني للعبادة ودليلاً على ظهور آثار هذه العبادة بإخراج الإنسان من ضيق فلسفة الصدفة، ومادية العلم التجريبي الوضعي المحروم من ثمرات الانتفاع الحق من الكون. ولا يمكن للفعالية التسخيرية وفق الرؤية القرآنية أن تكون فعالية راشدة غائية أخلاقية منتجة إلا إذا صدرت عن أبعاد متكاملة ذكرها عرسان الكيلاني من

(١) برغوث، **حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية**، مرجع سابق، ص١٣.

خلال نقده لعلاقة التسخير القائمة على الصراع بين الإنسان والكون في الفلسفة الغربية وتقييمه لإنتاجات العقل الغربي في ميدان التسخير فقال: "لعل من الموضوعية أن نقول أن العقل الغربي الحديث قد أبدع في اكتشاف قوانين الكون،... ولكنه إبداع اقتصر على الخطوتين الأوليين من خطوات التسخير التي مر استعراضها: خطوة "حسن استخدام طاقات السمع والبصر والعقل" وخطوة "دقة النظر في مكونات السماوات والأرض وتحويل القوانين المكتشفة إلى ممارسات وتطبيقات". ولكن العقل الغربي الحديث ما زال عاجزاً عن ممارسة الخطوة الثالثة من خطوات التسخير وهي"حسن الانتفاع بثمرات النظر والبحث" ومن ثَمَّ لم يصل إلى "الغاية الكبرى" من التسخير وهي "شكر الله" الذي حقيقته أن لا يعصي الله في نعمه"[1] فخطوات التسخير في الرؤية القرآنية ثلاث، وعناصر المنظومة التسخيرية أربعة كما سيأتي تفصيل الحديث عنها بعد قليل، والغرب جزأ هذه العناصر وألغى بعض الخطوات فآمن ببعض وكفر ببعض، فكان الحصاد المر لافتقاره إلى سنن الهداية والتأييد، وخرج بآيات الآفاق والأنفس عن طبيعتها المتكاملة وأصولها المتناغمة مع الفطرة الإنسانية الرحبة إلى أسوار النظرة المادية الطبيعية الضيقة.

إن كلتا المنظومتين (التسخير والاستخلاف) تشكلان نسقاً متكاملاً؛ لأن التحكم المعرفي والإحكام المنهجي والتوظيف الاستثماري الكلي للمنظومة السننية التسخيرية هو الذي يحدد ويتحكم ويوجه نموذج ودرجة الفعالية العمرانية للإنسان والمجتمع والأمة في خط الحركة الاستخلافية الحكيمة التي تتعامل بجاهزية عالية مع وقائع الابتلاء والتداول والتدافع والتجديد. إن الفصل بين مكونات منظومات سنن التسخير ومكونات منظومات سنن الاستخلاف يتولد عنه "مثل السوء" و"حضارة السفه"؛ ذلك أن الانشقاق بين هذه المكونات سيحول الدين إلى عصبية مذهبية وإلى أحزاب وشيع بسبب تبعيض الدين وتفريقه أجزاء منفصلة فصار في خدمة أهواء

(١) الكيلاني، **فلسفة التربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص١٣٨.

وعرقيات وطائفيات، فحرمت بذلك علوم الإنسان والاجتماع من بصائر الوحي، واصطدمت كثير من مناهجها ونتائجها مع سنن الله في العمران والاجتماع البشري. وقد توصل الطيب برغوث بنظره في القرآن الكريم إلى وجود أربع منظومات ترتبط بسنن التسخير التي تحكم وتحدد طبيعة وفعالية الحركية الاستخلافية وهي: منظومة سنن الآفاق، ومنظومة سنن الأنفس،[1] ومنظومة سنن الهداية، ومنظومة سنن التأييد.

حـ- تشكل هذه المنظومات السننية الأربع إمكانية أساسية وضمانة كبرى لتحرير الوعي من الفكر الخرافي والخوارقي، وتجنيب الفكر كل أشكال الانحراف القائمة على الوهم والظن والتسطيح وتبني الأحكام المسبقة، كما تمنح القدرة على فهم وتحليل وتفسير ظواهر المجتمع وحركة التاريخ والدورات الإنجازية ومستويات الفعالية للأمم والحضارات، وتكسب الفرد والجماعة خبرة متكاملة لنقد وتقييم وتقويم الظواهر والوقائع بموضوعية، كما تؤهل لضبط التوقعات المحتملة واستباق مآلات الأحداث والتوقي من الأخطاء والتطلع نحو المستقبل والتخطيط الأمثل لتعزيز فرص حماية العمران البشري.

ويؤكد الطيب برغوث على أن مستوى طبيعة العلاقة العقدية والوظيفية بهذه المنظومات السننية الأربع هو الذي يحدد ما إذا كانت حركة الوجود البشري الاستخلافي حركة سائرة "في خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية الذي ارتضاه الله لمسار الخلافة البشرية في الأرض، أم أنها تسير في خط الشركية والذاتية والاستكبارية والعدوانية والدنيوية بكل ما يترتب على السير في الخطين المتناقضين من نتائج متعاكسة تدفع أولاها باتجاه الفعالية الاجتماعية والحضارية التكاملية البناءة، بينما تدفع الثانية باتجاه الفعالية الاجتماعية والحضارية التنافرية

(١) حافظنا هنا على مصطلح "سنن الآفاق والأنفس" كما وظفه الطيب برغوث. وإن لم نكن متفقين معه، ولذلك سنشير فيما بعد إلى مصطلح "آيات الأنفس والآفاق"، وفق ما اقتضته الدراسة المصطلحية لـ"السنن".

الاهتلاكية الهدمية."[1]

والناظر في كثير من كتب التفسير ومؤلفات فلسفة التاريخ الإسلامي والكتابات التي نظرت لمشاريع الإصلاح والتجديد يجد أن الطيب برغوث قد استمد منها بنظرة استنباطية هذه المنظومات السننية الأربع، وصاغ منها تعريفاتها ومحدداتها المعرفية والمنهجية، جاعلاً الرؤية القرآنية هي الحاكمة في وضع أسس ومستويات العلاقة العقدية والوظيفية لهذه المنظومات السننية وأطرها الكلية الناظمة حذراً من الوقوع في وعي شقي يفصل بين هذه المنظومات فيحرص على استمداد فاعليته الحضارية انطلاقاً من آيات الأنفس والآفاق معرضاً عن استثمار سنن الهداية والتأييد، فيتحصل على شقوة الحضارة كما هو حال الغرب، أو في وعي مسطح متكلس ينتظر من سنن التأييد والهداية أن تتحقق بشائرها وقد صرف نظره عن الاشتغال بسنن الأنفس والآفاق، فيتحصل على رهق الحضارة كما هو حال مجتمعات أمتنا اليوم.

وبيان هذه المنظومات الأربع على الشكل الآتي:

أ - منظومة آيات الآفاق:

تمثل هذه المنظومة كتلة متكاملة من النواظم الضابطة للأنظمة الطبيعية والمادية، فلا فوضى ولا صدفة ولا تنافر، بل قدر وتقدير وتناسب، وترابط وتناسق وانتظام. وهذه المنظومة هي ما يقصده بعضهم بمصطلح "السنن الكونية". وقد دعا القرآن العظيم من أجل تبصر حقيقة الآفاق إلى إحكام المنهجية العلمية الصارمة؛ وهي منهجية النظر التجريبي المتوسلة بالنظر العقلي في تكاملية بين الحواس والعقل والتجربة، ليتحقق المقصد منها كما أراده القرآن، وهو ما تسفر عنه ثمرات اكتشاف سنن الآفاق من: بناء العقائد اليقينية، كما نبه على ذلك رشيد رضا،[2] وأنها أقرب

(١) برغوث، الطيب. **إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية**، سلسلة روافد، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص٤٩.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٦٨.

الطرق إلى إفهام الخلق حقيقة التوحيد،[1] والقدرة على تحقيق أعلى درجات الترقي الاستخلافي؛ إذ تعد المنظومة السننية التسخيرية عموماً شرطاً أساسياً وضرورياً في القيام بأمانة الاستخلاف، والتمكن من استثمار أنظمة الكون المادية وتسخيرها في تطوير مستوى الوجود الإنساني: المادي والمعنوي، وإنجاح حركة الابتلاء والتداول والتدافع والتجديد. وقد بين الطيب برغوث أن "الأفراد والمجتمعات يحققون من الاقتدار التدافعي والتداولي والتجديدي، بقدر وعيهم بسنن الآفاق، وحجم استثمارهم لها في ذلك، وهو ما تؤكده الخبرة التاريخية للإنسانية في كل مراحل الصيرورة الاستخلافية في الأرض، حيث كانت الغلبة والدولة باستمرار، للأكثر تحكماً في سنن الآفاق، والأقدر استثماراً لها في تلبية حاجاته المعاشية والعبادية والدفاعية."[2]

ولعل هذا الاستثمار الذي أشار إليه برغوث يفيد عدم استقلال منظومة آيات الآفاق وحدها بالتحكم الكامل في إقامة العمران البشري مالم تلحق بها منظومة آيات الأنفس، ليشكلا معاً الإطار الأول لتحقيق مستوى الفعالية الحضارية الذي لن يصل إلى مستوى الفعالية النموذجية المتوازنة القصوى إلا بالتحكم التسخيري التكاملي بين المنظومات الأربع، فلا يحصل بينها التناقض والتعارض المفضي إلى إهدار الميزانية التسخيرية لهذه المنظومات، فتتراجع كفاءتها في الاقتدار الابتلائي والتدافعي والتداولي والتجديدي، وترتفع درجة المديونية الحضارية للفعل العمراني. وهذا ما يجعل من شمولية وتكاملية الوعي العقدي والمعرفي والمنهجي لمنظومات سنن التسخير أمراً محورياً لازماً لكل حركة عمرانية تجديدية تؤسس رؤيتها على المنظور التوحيدي القرآني الكوني.

والقرآن الكريم في عرضه لهذه المنظومة يؤكد دوماً على اطراديتها ونفاذها، وأنها لا تنخرق إلا في حالات استثنائية لا ينفي اطرادها، كما يؤكد على أنها تظل على الدوام مفتوحة سخية معطاءة أمام كل عقل بشري استجمع شروط وأسباب معرفتها

(١) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج١، ص٩٧-٩٩.

(٢) برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق، ص١٥٦.

واستثمارها لا تعلق في ذلك بالإيمان والكفر إلا من جهة آثارها وثمراتها. لذلك كان الإسلام أكثر دعوة وتشديداً للجماعة المسلمة للانخراط بفعالية في تحقيق السبق في اكتشاف هذه العوالم الآفاقية وأنظمة الطبيعة "ومن ثم فلا يتصور أحد أن الإسلام ما جاء إلا لكي يؤكد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الأخلاقية والروحية فحسب... إننا بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزيئات والذرات... إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف، بين التلقي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها... بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض وتسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادي... ولم يفصل الإسلام -يوماً- بين هذا وذاك..."[1] وهذا التشديد من الإسلام لكل حركة إسلامية تجديدية على إتقان التحكم التسخيري لآيات الآفاق بما تملكه من رؤية معرفية وعقدية ومنهجية عاصم من الوقوع في هدر الإمكانات الحضارية للأمة، وعاصم أيضاً من الوقوع في استثمار تدميري ومادية متطرفة تكون آثارها عكسية على عالم النفس والمجتمع كما هو حال الحضارة الغربية المعاصرة.

ب- منظومة آيات الأنفس:

تمثل هذه المنظومة مجموع النواظم الحاكمة لحركة النفس والمجتمع والتاريخ، فهذا عالم له ضوابط تحكمه وقواعد تنتظمه، وهي عادة الله نافذة ماضية لا تتخلف، لا تحويل عنها ولا تبديل. وكثير من الباحثين يطلق عليه مصطلح "السنن الاجتماعية" للتمييز بينها وبين السنن الكونية بحسب ما ساروا عليه من تقسيم السنن وفق ما انتهى إليه نظرهم. والقرآن الكريم يعبر عن هذه المنظومة -كما في التي قبلها- بلفظ الآيات على ما يحمله هذا اللفظ من معنى الدليل والسلطان والوضوح والعلامة

(١) خليل، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٥.

والبينة. وقد أشار رشيد رضا إلى أن ثمرة هذه المنظومة هي بناء الأحكام الأخلاقية[1] كما عدّها الرازي أقرب الطرق إلى إفهام الخلق حقيقة التوحيد.[2]

ويقدم القرآن الكريم إشارات في الوعي المنهجي والاستثماري لسنن الأنفس تقوم على إمكانات متعددة: العقل، والخبرة التاريخية، والسير في الأرض حساً ومعنى، والاعتبار بمآلات الأفراد والأمم والحضارات، وإعمال صحيح الفطرة ومناهج التحليل النفسي والاجتماعي.

لكن، إذا كانت كل من منظومة آيات الآفاق وآيات الأنفس تمنح للفرد والمجتمع سلطاناً علمياً مادياً وضعياً على الطبيعة، وتمكنهما من رفع مستوى الأداء الإنجازي والفعالية الحضارية في أبعادها النفسية والفكرية والسلوكية والاجتماعية، وتحصل بهما درجة من الغلبة والفعالية، فإن هذا السلطان يظل فاقداً للقدرة على منح هذا الأداء اتزانه وصلاحه وخيريته، وعاجزاً عن بناء فعل حضاري راشد واضعاً كل مشروع حضاري أمام فلسفة وضعية مادية مفارقة للفطرة وغير متناغمة مع ظواهر الوجود، لا تملك منظومة من القيم المعيارية الحاكمة والمقاصد العليا الموجهة والهادية للفعل الحضاري، وهو ما تتيحه بأصالة وفعالية منظومة سنن الهداية.

ت- منظومة سنن الهداية:

ترتبط هذه المنظومة بالنسق القيمي والإطار المرجعي الذي يتركب من مجموعة من القضايا المعرفية، والقيم المعيارية المستمدة من الوحي وتطبيقاته النبوية المتمثلة في السيرة النبوية، كما تشكل هذه المنظومة الدعامة الأساسية الموجهة لمعطيات منظومتي آيات الآفاق والأنفس ونتائجها، والضامنة لاستثمارهما. ويعرف الطيب برغوث هذه المنظومة بأنها كل "ما جاء في وحي الله من هدايات عن الدورة الوجودية للإنسان في

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٦٨.

(٢) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج١، ص٩٧-٩٩.

مأتاه، وفي وظيفته، وفي مصيره،"[1] ثم ذكر شرطين لتحقق موافقة سنن الهداية:

- الشرط الأول: صدق التوجه إلى الله تعالى بإخلاص النية، وتصحيح القصد، وتجريد السلوك والحركة والفعل من كل شائبة نفسية ودنيوية.
- الشرط الثاني: متابعة الشرع، والانضباط به، وذلك بموافقته والتأسي بسنة النبي وسيرته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغرب يعيش اليوم حالة من الرهق الحضاري جراء دخوله في علاقة صراع مع الطبيعة والوجود، يستنفر فيها العلم المادي كل طاقاته النظرية والتطبيقية لإحكام السيطرة المدمرة على الطبيعة. فقد استغنى النموذج الغربي بأطره المعرفية وفلسفته الوضعية بنفسه في فهم الآفاق والأنفس دون الاهتداء ببصائر الوحي، فاضطرته اختياراته إلى تكثير مناهج ونظريات العلم مع اضطراب حقائقها وسوء تطبيقاتها. ولعل كل قارئ ومتتبع لتحيز الغرب لمنظومته واستكباره العالمي يقف على حجم "الختم" الذي وضعه هؤلاء العلماء على أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، فلم يستطيعوا الانفلات من عقلانيتهم المادية الضيقة وظلت كثير من القضايا عالقة دون إجابات علمية مقبولة، وما ذلك إلا بسبب الإعراض عن هدايات الوحي وتطبيقاته العملية المتمثلة في السيرة النبوية التي أجهد المستشرقون[2] أنفسهم في الصد عن بصائرها ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣] وقد أشار رشيد رضا إلى ذلك منبهاً إلى حقيقة أن غياب تحكيم سنن الهداية في النموذج الحضاري الغربي أفضى إلى صدور دورته الإنجازية عن الهوى والطغيان، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الإفرنج -فهم وإن كانوا على علم واسع بسنن الله في أحوال البشر

(١) برغوث، **حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية**، مرجع سابق، ص١١٠.

(٢) ألفت العديد من الدراسات في الموضوع، وقد أنجز أستاذنا الدكتور مصطفى بن عمر المسلوتي رسالة أكاديمية بعنوان: "دراسات المستشرقين الفرنسيين للسيرة النبوية"، تقدم بها لنيل درجة دكتوراه الدولة بدار الحديث، الرباط، ١٤١٨هـ

وسائر أمور الكون- قد نالوا بها ملكاً عظيماً في الأرض، فأكثرهم يجهل مصدر هذه السنن وحكم الله فيها، إن العلم بسنن الاجتماع والعمران لا يغني عن هداية الدين التي توقف أهواء البشر ومطامعهم أن تجمح إلى ما لا غاية له من الشر."[1]

إن الإعراض عن منظومة سنن الهداية وقوع في النظرة السطحية لأولئك الذين ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٦] وارتماء في أحضان الرؤية التجزيئية، وفقدان للوجهة والغاية، ومعارضة للفطرة، والعقل، والكون، وهو ما أفضى إلى تحكم منطق إرادة القوة والمنفعة والصراع. والوقوع في فلسفة مادية عدمية عبثية، وهو ما يعني مركزية منظومة سنن الهداية في تحقيق أصالة وفعالية الجهد البشري في إقامة العمران وإنجاح الحركة الاستخلافية بوصفها منظومة القيم الحاكمة والهادية والعاصمة لكل حركة إصلاحية تجديدية، وهو ما أشار إليه النص القرآني في توجيهه للبداية المؤسسة للاستخلاف الإنساني مبرزاً محورية اتباع سنن الهداية، وأن التنكب عنها مفض إلى الضلال والشقاء، قال عَزَّوَجَلَّ ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه: ١٢٣]. وقد دعا الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إلى النظر في الخبرة التاريخية للحضارات والأمم، والاعتبار بزوالها وهلاكها حينما أعرضت وكذبت بهدايات الدين، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦] وهذه المنظومة السننية المتعلقة بالهداية تختلف عن سابقتيها من حيث إنها لا تتحصل بإمكانات العقل والتجربة والخبرة التاريخية، وإنما هي مرتبطة بمصدرية الوحي ومرجعية النص الشرعي الإلهي، أما العقول فقاصرة عن وضع أسس هذه المنظومة وإن كانت هذه العقول تحمل في ذاتها إمكانات لفهم هدايات الوحي وتبصرها وإدراك بعض دلالاتها وحكمها وعللها، وهو إدراك خاضع في حد ذاته للتوفيق الإلهي؛ أي لمنظومة سنن الهداية نفسها.

---

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٩، ص٢٠.

ث- منظومة سنن التأييد:

تمثل هذه المنظومة دائرة الاستعانة وطلب الولاية الربانية واستمداد العون من الله والتوكل عليه، وتفويض الأمر إليه، والتضرع إليه بالدعاء قبل وبعد، ومع استفراغ جهد الإتيان بالأسباب التي تشكل منظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية مجالها الأساس. فتحقق حصول العون والتوفيق الرباني مرتبط بالتحقق بشروط المنظومات الثلاث. وتضم هذه المنظومة "ما يمنحه الله تعالى من عون وتأييد مباشر وغير مباشر، عندما يعجز عن مواجهة التحديات التي تفرزها في وجهه حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، بالمتاح والمقدور له من إمكانات سنن الآفاق والأنفس والهداية، فيمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإمكانات تسخيرية إضافية من منظومة سنن التأييد التي لا حدود لفعاليتها التسخيرية"[1] وهي بذلك سنن تنتمي إلى عالم الغيب استأثر الله عَزَّوَجَلَّ به، ثم هي تتنزل على عالم الشهادة بحسب المشيئة الإلهية واستكمال الإنسان لشروط النصر والتمكين المتمثلة في عوالم المنظومات السننية الثلاث. فالإنسان مطالب من حيث هو جماعة أو أمة أن يستجمع هذه الشروط، ليتنزل وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]. بهذه السنن تتحقق مباركة جهد المؤمن وتزكيته، إنها معية الله لمن يمتلك ناصية المنظومات الثلاث" إن تنصروا الله "ونصر الله لا يتم إلا من خلال استجماع الوعي والجهد والمجاهدة والمتابعة والتقويم والحماية لكل ما يتعلق بالمنظومات السننية "ينصركم" وهو التأييد الإلهي والتوفيق الرباني المترتب بمشيئة الله وفضله على ذلك الوعي والجهد السنني، ذلك أن سنن الله لا تحابي أحداً، "فالتأييد والنصرة والتمكين والإعانة والتوفيق على هذا الأساس، نتائج لمقدمات، وآثار لأعمال، فمن طلبها بغير مقدماتها

(١) برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق، ص١٦٧.

وشروطها فقد أخطأ الطريق، وسوف لن ينال إلا الخيبة والندم وسوء العاقبة؛ لأنه خالف سنن التأييد وعاكسها وتعرض لها، فانطبقت عليه، ولم يشفع فيه كونه مؤمنا؛ لأن الإيمان بهذا المعنى لا يشفع لصاحبه ولا يخرق سنن الله في خلقه التي تسري أحكامها باطراد على الجميع"[1] وقد اصطلح الطيب برغوث على هذه المنظومة بالمنظومة السننية الاحتياطية[2] التي يعمل استثمار معطياتها وعناصرها على تأمين العائد الإنجازي للمنظومات السننية الثلاث، وامتلاك إمكان تسخيري استثنائي لمواجهة التحديات والاحتمالات المتوقعة، والاستعانة به في توظيف الإمكانات المتاحة، واستثمار الفرص المتوافرة، والبلوغ بالجهد الإنساني المبذول إلى قمة عطائه العمراني وأقصى مستويات فعاليته الممكنة. ولعل الاختلال الوظيفي بين منظومتي سنن الإعداد وسنن التأييد قد جعل بعض أبناء الأمة يقدمون أشكالاً من الفهم والتفسير لواقعها ذات طابع تبريري تكرس وضعية الوهن الحضاري وتعمق من آثار الدخن المعرفي، فالتبست الرؤية بين إنسان قدري متواكل ينتظر مهدوية جديدة، ومعطل للقوى التسخيرية المادية، مقصر الأمر على مجرد التحقق الشعائري التعبدي الذي يعقد عليه وهم توليد كرامات على أيدي أولياء يكونون قادرين على إخراج الأمة من تخلفها، ومغال في الأخذ بمنتجات حضارة الغرب مغرق في التعاطي مع الخبرات المادية قد استعبدته أوضاع الغالب الذي سار على درب إحكام سنن الأنفس والآفاق بمرجعية فلسفية غربية مادية مقطوعة الصلة ببصائر الوحي.

إن كل "من يدرس بعمق الحركة الرسالية للأنبياء عبر التاريخ، يجدها كلها محاولة منهجية متناسقة وممتدة، لتأسيس وعي الإنسان "بدورته الوجودية" من جهة، وبناء وعيه "بميزانية التسخير" التي وضعت بين يديه لإنجاز مهمته الاستخلافية في الأرض من جهة أخرى، والتي امتدت لتستوعب قطاع آيات الآفاق، وقطاع آيات الأنفس،

---

(١) برغوث، **حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية**، مرجع سابق، ص١١٩.

(٢) برغوث، **إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية**، مرجع سابق، ص٩٥.

وقطاع سنن الهداية، وقطاع سنن التأييد، التي لا يغني أي منها عن الآخر بأي حال من الأحوال، ولا يستقل بتحقيق الأصالة والفعالية والاطرادية في "الدورة الإنجازية" للفعل أو الموقف الاستخلافي البشري!"[1]

وقد قضى الله تعالى أن تخضع حركة التاريخ والعمران لسننية الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وتحكم -بنفاذ واطراد لا يتخلف- صيروراتها الاستخلافية أو الحضارية، وهو ما يستوجب على نخب الأمة العلمية وقياداتها الميدانية الاستثمار الشمولي التكاملي المتوازن لكل منظومات الميزانية التسخيرية، بحسب ما تقتضيه طبيعة وخصوصية كل منظومة من المنظومات الكلية لسنن التسخير، ووفق منهج ورؤية القرآن الكونية التوحيدية. ويبرز المسار الاستخلافي العمراني للإنسان في الأرض "بشكل مطرد، أن أصالة وفعالية وديمومة الدفع والتداول والتجدّد الحضاري، ارتبطت باستمرار، بمدى قدرة الجماعات البشرية المتدافعة على استثمار سنن المنظومات التسخيرية الأربعة، فكان يتحقق لها من النفوذ والتمكين والظهور الحضاري، أو يصيبها من الفتور والوهن، ويعتريها من الإمعية والغثائية والهوان الحضاري... بحسب حجم ونوعية الاستثمار لهذه المنظومات السننية، ولم يشذ ولن يشذ عن ذلك أي جهد بشري على الإطلاق! "[2]

لقد شكلت الإشارات السابقة في هذا الفصل بعض البيان لبصائر الوحي في إرشاد الإنسان المسلم إلى الفقه السنني، وإحكام النظر المستقبلي، وعياً بدلالات الانتماء إلى الأمة الوسط والرسالة الخاتمة، وشحذاً للفعالية التسخيرية والاستخلافية في أفق إقامة عمران إسلامي إنساني عالمي.

---

(١) برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد**، مرجع سابق، ص٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص٤٧-٤٨.